الفصل الخامس

التعليم داخل المؤسسات الدينية ودور المكتبة فى التعليم

obeikandl.com

obeikandl.com

الدراسة فى المساجد التعليم بجامع عمرو - التعليم بالجامع الأزهر - المتصدرون- الطلبة - التعليم بجامع ابن طولون - التعليم بجامع الحاكم. التعليم داخل المؤسسات الصوفية الخوانق والزوايا والربط - المكتبات وأهميتها-موظفو المكتبة- الخازن - المناول - النساخ والمجلدين والمذهبين.

الدراسة فى المساجد :

كانت المساجد أقدم معاهد التعليم التى وجدت بمصر خاصة قبل ظهور المدرسة كمؤسسة تعليمية، ولم يقلل ظهور المدارس وانتشارها من شأن المساجد. إذ استمر المسجد هو أفضل أماكن التدريس لكثرة المنتفعين بالعلم فى المساجد وعدم اختصاصها بفئة معينة دون أخرى[1]. وقد تأثر التدريس بالمساجد بعض الشيء وواجه فترة من الركود النسبى فى العصر الأيوبى نظرا لاهتمام الأيوبيين بإنشاء العديد من المدارس التى انتقلت إليها قيادة الحياة التعليمية فى تلك الفترة وبالتالى تدفق عليها المدرسون والطلبة نظرا لما يصرف فيها من المرتبات النقدية والعينية بالإضافة إلى السكن المجانى فى كثير من المدارس.

ثم لم يلبث أن زاد الاهتمام بالمساجد طوال العصر المملوكى حتى تطور الأمر فى ذلك العصر وصارت المدارس نوعا من المساجد. بل إن المساجد التى أقيمت أساسا للعبادة أقيمت بها بعض الدروس ورتب لها الطلبة والمدرسون كتلك التى وجدت بالجامع الخطيرى[2]والجامع الباسطى[3] وجامع آق سنقر[4] وجامع الفخرى[5] وغير ذلك من الجوامع[6]. ولذلك فإن الحديث هنا سيكون عن المساجد التى أنشئت كلها قبل العصر الأيوبى وشاركت فى الحياة العلمية والأدبية طوال العصرين الأيوبى والمملوكى.

وتتميز الدراسة فى المساجد بالحرية المطلقة بالنسبة للمدرسين والطلبة فى اختيار مناهج الدراسة وأسلوبها وأوقاتها، إلا ما وجد منها خاضعا لما قام به البعض من ترتيب الدروس والأوقاف للصرف منها عليهم والتى كانت شروط الواقف تعتبر ملزمة لمن يكون بالدرس من الطلبة والمدرسين.

---

(١) انظر: ابن الحاج: المدخل جـ ١ ص ٨٥ ؛ جـ ٢ ص ١٠٢: ١٠٣ - سعيد عاشور المجتمع المصرى ص ١٦٠.

(٢) انظر: المقريزى الخطط جـ ٢ ص ٣١١ - السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٣١ - ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٦٢.

(٣) انظر: المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٣٢٩، ٣٣٠.

(٤) انظر: المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٣٠٨.

(٥) انظر: المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٣٢٧

(٦) انظر: ابن حجر. إنباء الغمر جـ ٢ ص ٢٦٧ - اليونينى. ذيل مرآة الزمان جـ ١ ص ٩٢، ٢٤٨، ٢٤٩.

وتختلف الدراسة فى المساجد عنها فى المدارس بأن عدد الطلبة غير محدد وإنما الذى يتحكم فى كثرة عدد الطلبة أو قلته شهرة المدرس نفسه فى الوسط العلمى، وقد اتخذت أساليب الدراسة فى المساجد نظام الحلقات العلمية والتى كان لها آدابها التى يجب على الكل احترامها سواء كانوا من المصلين والواردين على المسجد، أم كانوا من أصحاب الدروس الأخرى[1]. فيجلس المدرس وحوله طلبته فى شكل دائرة إن كان العدد صغيرا. وفى هذا النوع يكون الأسلوب التعليمى هو الشرح والمناقشة، أما إذا زاد العدد فتتخذ الحلقة شكل نصف دائرة[2] وتكون الدراسة عبارة عن إلقاء المحاضرات وإملائها ولكن فرصة المناقشة تكون محدودة. وقد اتخذ الكثير من الطلبة المساجد سكنا لهم لاسيما وأن الكثير منهم من خارج القاهرة سواء من كان منهم من المصريين أم من الطلبة الوافدين على مصر للمجاورة.

وقد شهدت الدراسة فى المساجد فى العصر المملوكى نشاطا علميا ضخما واتخذت صورة الجامعات الإسلامية لاسيما فى الجامع الأزهر.

جامع عمرو :

أقدم المعاهد العلمية فى مصر بدأت الدراسة فيه سنة ٣٦هـ[3] (٦٥٦م) ويبدو أنها لم تكن حلقات علم بالمعنى المفهوم ولكنها غالبا كانت دروس وعظ فقط وتفقيه الناس فى أصول دينهم، وشرح للقرآن والسنة. ثم بدأت حلقات العلم تأخذ فى النمو مع ظهور المذاهب السنية واتخاذ كل فريق أماكن له للتدريس فى الجامع، فعندما حضر الإمام الشافعى إلى مصر سنة ١٨٢هـ (٧٩٨م) وجد به ثمانى زوايا للتدريس (فدرس هو فى واحدة منها)[4] فعرفت به. ويذكر أنه فى سنة ٣٢٦هـ (٩٣٧م) كان بالجامع ثلاث وثلاثون حلقة منها خمس عشرة حلقة للشافعية ومثلها للمالكية وثلاث حلقات للحنفية. ويبدو أنه كان هناك خلاف بين الشافعية والمالكية مما دعا الاخشيد إلى إغلاق الجامع بعد نزع حصر ومساند الفقهاء ولم يفتحه إلا فى أوقات الصلاة فقط، ثم سئل الاخشيد فى أمرهم فأمر بفتح الجامع لهم[5].

---

(١) انظر: الماوردى. الأحكام السلطانية ص ١٨٠ – الزركشى: إعلام الساجد بأحكام المساجد ص ٣١٢، ٣١٣ – ٣٢٤، ص ٣٩١، ٣٩٧.

(٢) Dodge: Muslim Education, P.8.

(٣) مصطفى أمين: تاريخ التربية ص ١٨١.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٥٤ – انظر ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٢٣.

(٥) ابن سعيد: المغرب (الاغتباط) جـ ١ ص ١٧٣

ورغم استيلاء الفاطميين على مصر بعد ذلك إلا أن حلقات العلم والدراسة على المذهب السنى لم تنقطع من الجامع، بل إنه فى بعض الأحيان قام الفاطميون بالعناية بالجامع وتجديده وتزويده بالكتب - ثم تخرب الجامع فى أواخر الدولة الفاطمية ولكن بعد استيلاء صلاح الدين على الحكم جدده وبنى بعضا من مدارسه بجواره ثم أوقف ابنه العزيز عثمان على الزاوية «المعروفة بالشافعى أرضا بناحية سندبيس»[1].

واستمرت يد الإصلاح على الجامع فى عهد المماليك فاهتم به السلطان بيبرس ثم عندما حدث زلزال سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) وتهدمت بعض جدر الجامع وسقوفه «انتدب الأمير سلار لعمارته وترميمه»[2].

وقد تمثل النشاط العلمى بجامع عمرو فى العدد الكبير من الزوايا التى رتبها الأمراء والأثرياء ووقفوا عليها الأوقاف للصرف منها على من يقوم بالتدريس بها. ومن ذلك الزاوية المجدية: رتبها مجد الدين أبو الأشبال وقرر فى تدريسها قاضى القضاة وجيه الدين عبد الوهاب البهنسى[3] فدرس بها إلى حين وفاته ثم درس بها أقضى القضاة جلال الدين العصلوجى إلى حين وفاته فدرس بها الإمام العالم صدر الدين بن المرجل «ومدرسها الآن بعده قاضى القضاة صدر الدين المناوى»[4] ولعله من الملفت للنظر أن معظم من تولى التدريس بها من قضاة القضاة وهذا يدل على أن هذه الزاوية كانت لها مكانتها العلمية وأن كثيرا من الطلبة كانوا يتلقون تعليمهم بها نظرا لشهرة شيوخها العلمية إذ يذكر المقريزى «ويعد تدريس هذه الزاوية من المناصب الجليلة»[5].

الزاوية الصاحبية التاجية: رتبها الصاحب تاج الدين محمد بن فخر الدين بن حنا ورتب لها مدرسين أحدهما مالكى والآخر شافعى ووقف عليها أوقافا بظاهر القاهرة بخط البرادعيين[6].

الزاوية الخشابية: وكانت تعرف من قبل بزاوية الشافعى لأن الإمام الشافعى رضى الله عنه أقام بضع سنين يدرس بها فاشتهرت به ولا زال يدرس بها قضاة القضاة والعلماء وغيرهم من كبار الفقهاء[7].

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٥٤.

H. Rabie: Some financial Aspects of the Waqf system P. 16.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٢هـ.

(٣) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ١٠٠ - المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٤) ابن دقماق - الانتصار جـ ٤ ص ١٠٠.

(٥) المقريزى - الخطط جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٦) ابن دقماق - الانتصار جـ ٤ ص ١٠٠ المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٤٥.

(٧) ابن دقماق - الانتصار جـ ٤ ص ١٠٠ - المقريزى: السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٣٤٠. جـ ٤ ق ٢ ص ٥٨٧.

هذا بالإضافة إلى خمس زوايا أخرى[1] ذكرها كل من المقريزى وابن دقماق، أنشأها واقفوها ورتبوا عليها الأموال وعينوا لها الفقهاء للقيام بالتدريس لمن يحضر إليها من الطلبة وأهل العلم ومثلت هذه الزوايا نشاطا علميا كبيرا بالجامع، وبالإضافة إلى هذه الزوايا وجدت أيضا الكثير من حلقات العلم التى كان يقيمها العلماء والفقهاء بالجامع دون أن يكون الدافع إلى ذلك ما هو مرتب لإقامة الدرس من المعاليم، بل يقومون بذلك ابتغاء مرضاة الله وإفادة طلبة العلم فيذكر أنه كان بالجامع «قبل سنة تسع وأربعين وسبعمائة (١٣٤٨م) بضعا وأربعين حلقة لإقراء العلم»[2] ورغم ما كان يصيب الجامع فى بعض الأحيان من الإهمال والخراب ودخول العامة فيه واتخاذه طريقا ومعبرا لهم، ومكانا للبيع والشراء والأكل مما أدى ذلك إلى توسيخ حيطانه ووجود العناكب بسقوفه. إلا أن ابن سعيد الذى زار مصر ورآه على هذه الصورة يقول: إنه رأى على الجامع من الرونق وحسن القبول وانبساط النفس ما لا تجده فى جامع أشبيلية مع زخرفته والبستان الذى فى صحنه. وقد استحسن ما أبصر فيه من حلقات المتصدرين قراء القرآن والفقه والنحو فى عدة أماكن منه وأنه سأل عن موارد أرزاقهم فأخبر بأنها من فروض الزكاة[3]. أى إن المجاورين به لم تكن لهم مرتبات خاصة معلومة ولكنهم فى ذلك شأنهم شأن المجاورين بالأزهر يعتمدون على ما يقدمه لهم البعض من الصدقات مع ما كانوا يتعرضون له من تحرش المماليك الأجلاب وعبثهم وخطف عمائم الرجال[4]. ومع ذلك ففى سنة ٨٧٦هـ (١٤٧١م) توجه السلطان قايتباى إلى الجامع ليكشف عنه فشكا له أرباب الشعائر من أن الموظفين به لا يباشرون أعمالهم فكشف الجامع بنفسه وتصدق على جماعة من المجاورين به وبرسم ما تهدم منه[5].

التعليم بالجامع الأزهر:

تقدم أن التعليم بالجامع الأزهر اصطبغ منذ نشأته بصبغة مذهبية شيعية. ولذلك أراد صلاح الدين أن يفقد هذا الجامع أهميته الروحية فمنع إقامة الخطبة به ونقلها إلى الجامع الحاكمى. أما من الناحية التعليمية فقد اهتم صلاح الدين بإنشاء المدارس للمذاهب السنية التى نافست التعليم فى المساجد بوجه عام وكان توفير المساكن والمرتبات للمدرسين والدارسين خير دافع لهم

---

(١) انظر: المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٢٥٤ - ٢٥٥ - ابن دقماق - الانتصار جـ ٤ ص ١٠٠، ١٠١.

(٢) المقريزى - الخطط جـ ٢ ص ٢٥٥.

(٣) انظر ابن سعيد: المغرب - الاغتباط - جـ ١ ص ٧.

(٤) ابن إياس: صفحات لم تنشر ص ٦٥.

(٥) ابن الصيرفى: إنباء العصر ص ٣٣٤.

لترك حلقات العلم بالمساجد والالتحاق بالمدارس الجديدة كمدرسين أو طلبة. ومع ذلك فقد ظل الأزهر محتفظا بطابعه العلمى مع تغيير المنهج الدراسى بما يتفق والوضع الجديد، إذ تحول الأزهر لدراسة الفقه السنى. ومع ذلك فإن الأزهر لم يحظ بالعناية الكافية من السلاطين أوالأمراء الأيوبيين رغم النزعة العلمية التى برزت فى العصر الأيوبى متمثلة فى الاهتمام بالتعليم ودوره.

ونسمع فى ذلك العصر عن استمرار إقامة حلقات العلم والتدريس بالأزهر وعن أن كثيرا من العلماء ذوى المكانة العالية قصدوه وألقوا به محاضرات فى علوم الكلام والبيان والمنطق فضلا عن الرياضة والفلك وربما الطب أيضا[1]. ومن العلماء الذين اشتغلوا بالتدريس فى الجامع الأزهر وأقاموا به حياة علمية نشيطة فترة إقامتهم بالقاهرة عبد اللطيف البغدادى ولاسيما فى زيارته الثانية فى عهد عبد العزيز بن صلاح الدين حيث يقول البغدادى «وكانت سيرتى فى هذه المدة أن أقرىء الناس بالجامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة، ووسط النهار من يقرأ الطب وغيره وآخر النهار أرجع إلى الجامع الأزهر ويقرى قوم آخرون، وفى الليل أشتغل مع نفسى ولم أزل على ذلك إلى أن توفى الملك العزيز»[2]. ومن هذا النص يتضح أن الجامع الأزهر لم يستخدم معهدا لتدريس الطب[3]. لأن فترة تدريس البغدادى للطب كانت بين الفقرة الصباحية والفقرة المسائية التى يقوم بالتدريس فيها بالأزهر.

ولا شك فى أن الأزهر رغم ما تعرض له كان أكثر تحررا فى مناهجه الدراسية عن المدارس التى لها قوانينها ولوائحها الموجب اتباعها. واستمر الأزهر على هذا الحال ما يقرب من مائة سنة، وفى عام ٦٦٥هـ (١٢٦٦م) فى عهد السلطان الظاهر بيبرس «أعيدت الخطبة والجمعة بالجامع الأزهر بعناية الأمير عز الدين ايدمر الحلى»[4]. الذى قام بترميم الجامع ورد إليه كثيرا من أوقافه التى كانت بأيدى بعض الناس وساعده الأمير بدر الدين بيلبك الخازندار

---

(١) انظر: سعيد عاشور. المجتمع المصرى ص ١٦٠ – محمد عنان. تاريخ الجامع الأزهر ص ١١٤ عبد الرحمن زكى: الأزهر وما حوله ص ٦٤، ٦٥.

(٢) عبد اللطيف البغدادى: الإفادة والاعتبار ص ح.

(٣) انظر: غنيمة. تاريخ الجامعات ص ١٢٥ حيث يرى أن البغدادى كان (يقرى الناس الطب وغيره بالجامع الأزهر).

(٤) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٦، ٥٥٧ اليونينى ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٦٠، ٢٦١ وقد سبق ذلك معركة فقهية بين العلماء على أساس أنه لا يجوز إقامة خطبتين للجمعة فى آن واحد – كانت الخطبة تقام قبل ذلك بالجامع الحاكمى – انظر ابن أيبك الدوادارى كنز الدرر جـ ٨ ص ١٢١.

ابن كثير: البداية والنهاية جـ ١٣ ص٢٤٨ – سعيد عاشور. المجتمع المصرى ص١٦١ خفاجى – الأزهر فى ألف عام ص ٦٥، ٦٦ – عبد الرحمن زكى. الأزهر وما حوله ص ٢٦، ٢٧. سرور: الظاهر بيبرس ص ١٥٥، ١٥٦ – سنية قراعة: ساجد ودول ص ١٧٧.

نائب السلطنة فعمل بالجامع مقصورة ورتب فيها مدرسا وجماعة من فقهاء الشافعية كما رتب أيضا محدثا ليسمع الحديث النبوى والرقاق، ورتب على ذلك وقفا جيدا للصرف منه على المشتغلين بالعلم[1]. وكان ذلك إيذانا ببدء النشاط العلمى الضخم الذى شهده الجامع الأزهر طوال العصر المملوكى. ثم تجددت عمارة هذا الجامع بعد أن تأثرت مبانيه بزلزال سنة ٧٠٢هـ (١٣٠٢م) وتولى الأمير سلار عمارته[2].

ويبدو أن النشاط العلمى بالأزهر والعناية بتجديده أديا إلى أن يقوم بعض الأمراء بإنشاء مدارسهم بجواره فبنى الأمير علاء الدين طيبرس مدرسته زيادة فى الجامع الأزهر وقرر بها درسا للفقهاء الشافعية[3].

كذلك أنشأ الأمير أقبغا عبد الواحد مدرسته سنة ٧٤٠هـ (١٣٤٠م) وركبت شبابيكها بجدران الجامع الأزهر[4]. ولم يلبث أن توالت يد الإصلاح على هذا الجامع فجدده القاضى نجم الديم محمد الأسعردى فى سنة ٧٢٥هـ (١٣٢٤م) إلى أن كانت سنة ٧٦١ ٧٦١هـ (١٣٥٩م) تولى العناية به الطواشى سعد الدين بشير الجامدار الناصرى فأخرج ما فيه من الصناديق والمقاصير وتتبع جدرانه وسقوفه بالإصلاح وبيضها وبلط أرضية الجامع ومنع الناس من المرور فيه[5]. وأنشأ به سبيلا للماء ومكتبا لإقراء الأيتام القرآن الكريم، ورتب للمجاورين بالجامع طعاما يطبخ لهم ويفرق عليهم كل يوم، ولم تقف عنايته بالجامع عند هذا الحد بل إنه «رتب فيه درسا للفقهاء من الحنفية يجلس مدرسهم لإلقاء الفقه فى المحراب الكبير ووقف على ذلك أوقافا جليلة»[6]. ثم أصدر السلطان برقوق مرسوما بأن كل من توفى من المجاورين بالأزهر وليس له وريث أن تؤول تركته للمجاورين به[7].

أما من ناحية نظام الدراسة فإنه يختلف فى الأزهر اختلافا كبيرا عن نشاطها فى المدارس. ذلك أن الأزهر جمع العديد من الطوائف والأجناس المختلفة الذين جاوروا به وأقاموا فيه وأقاموا به الحلقات العلمية حتى بلغ عدد الدارسين نحو سبعمائة وخمسين رجلا بين عجم وزيالعة

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٥٥٧ – اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ٢ ص ٢٦٣.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥ – عبد الرحمن زكى: الأزهر وما حوله ص ٢٧. – خفاجى: الأزهر فى ألف عام ص ٦٦.

(٣) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ٩٦، ٩٨ – المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٨٢. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٦، ٥٧.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٨٤ – خفاجى: الأزهر فى ألف عام ص ٦٦.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥ – عبد الرحمن زكى: الأزهر وما حوله ص ٢٧.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥.

(٧) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥ – انظر النص بكتاب حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد الأثرية ص ٥٤.

ومغاربة وشوام ومن أهل ريف مصر وغيرهم فكان الأزهر بمثابة جامعة إسلامية كبرى. يتجمع فيه الطلبة المصريون وغيرهم من الأقطار الإسلامية، وكل جماعة منهم تتخذ لها رواقا من أروقته ويسمى باسمهم مثل رواق المغاربة والزيالعة وغيرهم من جنسيات المجاورين، أو حسب التقسيم الإقليمى بالنسبة للطلبة المصريين مثل رواق الريافة، وكان لكل رواق شيخ[1] يقوم بالإشراف على المجاورين به. فكان الأزهر عامرا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه والاشتغال بأنواع العلوم من الفقه والحديث والتفسير والنحو ومجالس الوعظ وحلقات الذكر «فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله والارتياح وترويح النفس ما لا يجده فى غيره»[2].

وكانت سبل الإعاشة بالنسبة لهؤلاء المجاورين تختلف عنها فى المدارس، إذ إن الطلبة فى المدارس يتلقون المعاليم الشهرية التى تعينهم على معيشتهم والاستمرار فى طلب العلم، أما فى حالة الطلبة المجاورين فإنهم يقومون بنفقة أنفسهم، إلا ما يقوم به أرباب الأموال والإحسان من الصدقة بأنواع البر من الأموال والأطعمة والحلوى، لاسيما فى المواسم إعانة للمجاورين[3].

فنجد مثلا الأمير يشبك من مهدى يخصص بعض الأراضى ويوقفها للصرف منها على إعداد الطعام والخبز وتفريقه يوميا على الفقراء المجاورين بالجامع الأزهر ممن ليست لهم وظيفة. ويصرف لكل واحد منهم رغيفان من الخبز وقصعة قمحية من اللحم يوميا[4]. ويبدو أن الكميات التى كانت تصرف لتفريقها على المجاورين كانت تزيد على حاجتهم. إذ شرط الواقف «.. فإن فضل شىء من الطعام أو الخبز أو اللحم عن تكفية الفقراء المجاورين المذكورين فيه تصدق بالفاضل فى يومه على الفقراء الواردين على الجامع الأزهر المذكور»[5]. وقد بلغت صدقة أحد الخيرين على القاطنين بالجامع ألفا ومائتى رغيف فى كل يوم[6]. بجانب الطعام الذى يطبخ لهم ويفرق عليهم وهذا يبين لنا ضخامة عدد المجاورين القاطنين بالأزهر فى تلك الفترة. هذا بخلاف الطلبة المترددين عليه والذين يقيمون بخارجه.

وعلى هذا المنوال قام كثير من القادرين بتخصيص جزء معين من أوقافهم ضمانا لتوفير الخبز للمجاورين بالأزهر[7]. بينما وجد البعض الآخر الذى يخصص للطلبة الافاقية إذ تذكر إحدى

---

(١) انظر: السخاوى. الضوء اللامع جـ٨ ص١٥٠-ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات المجلد التاسع جـ٢ ص٤٧٤.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥ - سعيد عاشور. المجتمع المصرى ص ١٦١.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم - وثيقة الأمير يشبك من مهدى ص ٤٣ - ٦٥.

(٤) القمحية هى غذاء الصوفية والفقراء وكانت تطبخ باللحم والمرق واللبن والقمح.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة الأمير يشبك من مهدى ص ٦٥.

(٦) ابن الصيرفى: إنباء العصر ص ٤٨٨.

(٧) انظر حجة صلاح الدين بلجك ٦٢٣ أوقاف - حجة فاطمة ابنة عبد الله الجهركسية ٨٢ أوقاف.

الحجج «.. ويصرف من ريع الوقف المذكور فى ثمن خبز قرصه يفرق لله فى الجامع المعمور بذكر الله تعالى المعروف بالأزهر عمره الله تعالى فى الأروقة الداخلة فى الجامع المذكور على الفقراء المجاورين المستحقين الأفاقية»[1]. إلا أن بعض الواقفين نجده يخصص جنسا معينا من طلبة الأزهر للاستفادة بمارتبه من الأوقاف إذ تذكر حجة جوهر اللالا «.. ويصرف من فائض ريع الوقف المذكور فى كل سنة من السنين العربية من الفلوس المعينة بأعاليه خمسة آلاف درهم نصفها ألفا درهم وخمسمائة درهم تفرق فى أول كل شهر رمضان منها على الفقراء والمساكين من صنفى الزيالعة والجبرتية خاصة دون غيرهما من المجاورين برواق الزيالعة بجامع الأزهر المعمور بذكر الله تعالى بالقاهرة المحروسة بالسوية والاعتدال»[2]. كذلك وجد نوع آخر من الإنفاق على الدارسين بالأزهر كأن يقوم أحد القادرين بوقف ريع معين للصرف منه على بعض المدرسين والطلبة إذ يذكر أن الشيخ شهاب الدين شيخ الخانقاة الصلاحية أوقف ريعا على مدرس شافعى عنده عشرة من الطلبة بالجامع الأزهر[3]. وهذا النوع الأخير من الأوقاف على ترتيب الدروس بالأزهر توضحه لنا حجة الزينى خشقدم. إذ قام الواقف بترتيب الدروس لطائفتى الشافعية والحنفية برواق الرياقة[4]. كما رتب الصوفية والقراء. ولعل دراستنا لهذه الحجة تبين لنا جانبا من هذا النشاط الذى شهده الأزهر. كذلك استخدم الأزهر كخانقاة يعيش به جماعة من الصوفية، إذ جاء فى حجة الزينى خشقدم أن الواقف رتب ستين صوفيا على أن يجلسوا كل يوم برواق الرياقة وتفرق عليهم أجزاء الربعات الشريفات بحيث يقرأ كل واحد منهم جزءا من القرآن الكريم «وعند انتهائهم من قراءة الأجزاء الستين يعلن منهم جماعة يعينهم الشيخ المذكور لقراءة الصفة على أن يجهرون بقراءة سورة الإخلاص والمعوذتين ويهللون ويكبرون..» ويصلون على النبيﷺ ويدعون للواقف والمسلمين ويصرف لشيخ الصوفية فى كل شهر «مائة درهم وعشرون درهما» ولكل واحد من باقى الصوفية وعدتهم تسعة وخمسون صوفيا «ستون درهما» على أن يرتب من جملة الصوفية خادما لهم يكتب غيبتهم ويصرف له زيادة على معلومه

---

(١) حجة زينب بنت العلائى على ٥٩٥ أوقاف.

(٢) حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق.

(٣) انظر المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٣ ص ٧٥٥ - ابن حجر إنباء الغمر جـ ١ ص ٤٢٣.

السخاوى: الضوء اللامع جـ ٦ ص ١٧٥ - ص ٢١٣.

(٤) طلبة الأرياف القادمين من أقاليم مصر.

(عشرون درهما) ويرتب أيضا من جملة الصوفية ثلاثة قراء للصفة ورفع العشر ويصرفا لكل واحد منهم عشرة دراهم زيادة على معلوم التصوف[1].

وبالإضافة لما قرره الزينى خشقدم من الصوفية، رتب درسين أحدهما شافعى والآخر حنفى على أن يجلس كل شيخ ومعه عشرة من الطلبة على مذهبه برواق الريافة أو مكان آخر من الجامع فى كل يوم من الصباح الباكر للدراسة عدا أيام الجمع وشهر رمضان من كل سنة. ولم يخصص الدرس للطلبة فقط ولكنه شرط أن يقوم الشيخ بالتدريس لمن يحضر عنده من المسلمين الراغبين فى العلم وقد اشترط الزينى خشقدم أن يكون الشيخ الشافعى «.. رجلا من أهل الخير والدين شافعى المذهب عالما بالكتاب والسنة والفقه. وأن يرتب معه عشرة من طلبة العلم الشافعية»[2] وحددت أيام البطالة بيوم الجمعة من كل أسبوع وطوال شهر رمضان بالإضافة إلى أيام البطالة الجارى العمل بها مثل المواسم والأعياد وخلافها. وتحدد البرنامج اليومى للدراسة بأن يجتمع الشيخ وطلبته فى أيام الدراسة «ويقرأ الشيخ للطلبة المذكورين ولمن يحضر معهم من المسلمين ملتمسين بركة العلم الشريف ما تيسر له تقريره من العلم الشريف على مذهب الإمام (الحبر) الشافعى محمد بن إدريس رضى الله عنه وأرضاه وجعل الجنة مأواه وعند فراغ الشيخ من الدرس يقرءون بجميعهم سورة الإخلاص والمعوذتين..»[3] على أن يقوم الشيخ الحنفى وطلبته وعدتهم عشرة أيضا بفعل ما شرطه الواقف للشافعية. وأن يصرف لكل شيخ من الشيخين عن قيامه بوظيفة التدريس فى كل شهر مائة وخمسون درهما «.. ويصرف للشيخ عن ذلك فى كل شهر من الفلوس المذكورة أعلاه مائة درهم وخمسون درهما نصف ذلك خمسة وسبعون درهما»[4] وأن يصرف لكل واحد من الطلبة العشرين الشافعية والحنفية فى كل شهر من الشهور ثمانون درهما إذ تذكر الحجة «.. ويصرف لكل من الطلبة فى كل شهر من الفلوس المذكورة ثمانون درهما نصف ذلك أربعون درهما»[5] على أن يرتب فى كل درس من الدرسين المذكورين أحد من الطلبة ويصرف له فى «كل شهر عشرة دراهم زيادة على معلومه فى نظير كتابة الغيبة على من يغيب من الشيخ والطلبة»[6]. ومهما يكن من أمر فقد تكرر إنشاء مثل هذه

---

(١) حجة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف.

(٢) حجة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف.

(٣) حجة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف.

(٤) حجة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف.

(٥) حجة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف.

(٦) حجة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف.

الدروس بالأزهر[1] كما سبق أن ذكرنا ولكن بالنسبة للدرس الذى قرره الزينى خشقدم بالأزهر كان بصفة مؤقتة لحين بنائه جامعا مستقلا ثم ينقل فيه ما قرره من الصوفية والطلبة، ولكنه اشترط أنه إذا تعذر بناء مثل هذا الجامع فعلى الناظر أن يزيد عدد الطلبة ويزيد من المرتبات التى قررها للصوفية وشيخهم والطلبة ومشايخهم «.. وتعذر شراء العقار رتب الناظر على هذا الوقف ما يرى ترتيبه من طلبة الدرسين المذكورين أعلاه إلى انتهاء كل درس عشرين نفرا ويجعل لهم معلوما نظير معلوم المقررين أولا ويزيد أرباب الوظائف الشيخ والصوفية والمدرسين والطلبة المذكورين زيادة بتدريج أولاً بأول إلى أن يبلغ لشيخ الصوفية جامكية فى كل شهر ماية درهم وثمانون درهم من الفلوس المذكورة ولكل نفر من السادة الصوفية ماية درهم ولكل واحد من المدرسين للطلبة فى كل شهر ماية درهم وعشرون درهم»[2].

ومع هذا فإن معظم الطلبة بالأزهر كانوا من المجاورين الذين يعتمدون فى نفقة معيشتهم على أنفسهم وما يقدمه لهم البعض من البر والصدقة.

وكان معظم المدرسين بالجامع الأزهر يقيمون حلقاتهم به بدافع العامل الدينى وليس طمعا فى المعلوم المقرر لهم كما هو الحال فى المدارس. وإذا استثنينا الفئة القليلة من المدرسين التى كان لها معلوم عن التدريس بالأزهر نجد أن الغالبية العظمى كانوا يقومون بالتدريس احتسابا لوجه الله و تبرعا لنفع الطلبة. ومن هؤلاء الشيخ محمد بن عبد الوهاب البارنبارى (المتوفى سنة ٨٣٢هـ - ١٤٢٨م) الذى تصدر بالجامع الأزهر احتسابا[3]. وكذلك الشيخ شمس الدين الشطنوفى (المتوفى سنة ٨٣٢ هـ ١٤٢٨م) الذى تصدر بالجامع الطولونى فى القراءات وفى الحديث بالشيخونية، ثم تصدر لشغل الطلبة تبرعا بالجامع الأزهر[4]. وكان البعض يرفض الالتحاق بالوظائف أو التكسب بأى شىء آخر يعينه على المعيشة مع ملازمته للدراسة أو الإقراء بالأزهر[5]. وغير هؤلاء نجد بعض العلماء ممن لهم شهرة كبيرة مثل عبد اللطيف البغدادى[6].

---

(١) انظر: المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٧٥٥، جـ ٣ ق ٢ ص ٧٥٥، ٧٧٧ - الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥ - اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ص ٢٦٣ - ابن حجر إنباء الغمر جـ ١ ص ٤٢٣ - السخاوى: الضوء اللامع جـ ٦ ص ١٧٥ - ٢١٣.

(٢) حجة الزينى خشقدم ١٨٨ أوقاف.

(٣) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٣ ص ٤٣٠ - السخاوى. الضوء اللامع جـ ٨ ص ١٣٨. ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٧ ص ١١٩ - ٢٠٠.

(٤) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٣ ص ٤٢٨، ٤٢٩ - السخاوى: الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٥٦ - ابن العماد: شذرات الذهب جـ ٧ ص ١٩٨.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٣ ص ٣٣٧.

(٦) عبد اللطيف البغدادى - الإفادة والاعتبار ص - ح .

والشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون[1]. الذى كان جلوسه بالأزهر حدثا علميا فدرس عليه الكثير من علماء مصر ومؤرخوها والشيخ أحمد بن عيسى المالكى الصنهاجى[2]، والشيخ زين الدين قاسم المغربى[3] وغيرهم من العلماء الذين تصدروا للاشتغال بالأزهر وأقبل عليهم الناس والطلبة وانتفعوا بهم فى معظم فروع العلم، كالفقه والقراءات والعربية وغيرها. وقد يتخذ أحد المدرسين درسه فى داخل أحد المقاصير الموجودة داخل الجامع بعناية واقفيها[4]. على أن التشجيع الذى لاقاه المدرسون فى المدارس لم يمنع بعض المدرسين من ترك وظائفهم بها والإقامة بالأزهر[5]. للتأليف وإقراء الطلبة. واتخذ بعض المشايخ من سطح الجامع[6] مكانا لإقامتهم، ولم يمنع ذلك من توافد الطلبة عليهم للدراسة والأخذ منهم. وقد انتشرت هذه الخلوات لبعض العلماء والصوفية وكثر تردد الناس عليهم.

وكان بعض المدرسين يتخذون من التدريس بالأزهر وسيلة لاكتساب الشهرة العلمية وإثبات أهليتهم للتدريس إلى أن يتمكنوا من الحصول على وظيفة بإحدى المدارس أو إحدى المؤسسات التعليمية الأخرى[7]. كذلك كان لبعض المجاورين شهرة عند الأمراء والسلاطين، فقد قام السلطان برسباى فى سنة ٧٢٨هـ (١٤٢٤م) بزيارة الجامع الأزهر لتفقد بعض منشآته واستغل هذه الفرصة وزار الشيخ خليفة والشيخ سعيد وهما من المغاربة ولهما بالجامع الأزهر عدة سنين[8].

ولم تخل الحياة فى الأزهر من بعض الاحتفالات وخاصة فى شهر رمضان حيث كان يقرأ فيه كتاب البخارى فى الأحاديث النبوية وعند انتهاء الحفل كانت تفرق الخلع والأموال على الفقهاء والعلماء[9].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٤٨٠.

(٢) ابن حجر: أنباء الغمر جـ ٣ ص ٣٣٢.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٢ ق ٢ ص ٨٤٤ – انظر: ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٣٥. عبد الرحمن زكى: الأزهر وما حوله ص ٦٥، ٦٦ – محمد مصطفى زيادة. المؤرخون فى مصر ص ٥.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٨ ص ١٥٩.

(٥) ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٣ ص ١٣٦، ١٣٧ – الكتبى. فوات الوفيات جـ ٢ ص ٢٦٩.

(٦) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٣ ص ١١٨، ١١٩ – جـ ٥ ص ٢٣ – جـ ٨ ص ٣٤ – جـ ٩ ص ٣١، ٣٣ – ابن بطوطة. تحفة النظار ص ٣٥.

(٧) السخاوى: الضوء اللامع جـ ١ ص ١٣٤، ١٣٥.

(٨) المقريزى: السلوك جـ ٤ ق ٢ ص ٦٧٩.

(٩) ابن إياس: بدائع الزهور جـ ٢ ص ١٧٥، ١٧٦، ١٧٧.

ولم تحظ الحياة التى عاشها الطلبة المجاورون بالأزهر بالاستقرار التام إذ إنهم تعرضوا فى بعض الأوقات لكثير من أنواع العسف والتعدى فيصف المقريزى ما حدث لهم فى سنة ٨١٨هـ (١٤١٥م) عندما تولى الأمير سودون القاضى حاجب الحجاب النظر على الأزهر فقد أمر فى جمادى الأولى من هذه السنة بإخراج المجاورين ومنعهم من الإقامة، وأخرج ما كان لهم من الصناديق والخزائن وكراسى المصاحف وغيرها من متعلقاتهم فحل بهؤلاء المجاورين من طلبة العلم وفقراء الصوفية ضرر كبير نتيجة لذلك وتشتت شملهم وفقدوا ما كانوا يتناولونه من الصدقة التى كانت تفرق عليهم فى كل يوم من خبز ولحم وغيرها، والتى كانت تعينهم على ستمرارهم فى طلب العلم إذ إن غالبيتهم لم تكن لهم وظيفة يتعيشون منها. ولما تعذرت الإقامة فى الأزهر تشتتوا وساروا فى القرى وتبذلوا بعد الصيانة، وكان لخروجهم من الأزهر أن فقد كثيرا مما كان فيه من تلاوة القرآن الكريم ودراسة العلم وحلقات الذكر وغيرها مما كان يقوم به المجاورون.

على أن الأمير سودون لم يقتصر ظلمه عند هذا الحد بل زاد فى التعدى فهاجم الأزهر وأخرج منه كثيرا من الناس ما بين تاجر وفقيه وغيرهم ممن يقصدون بمبيتهم فيه البركة أو الاسترواح وقبض على بعضهم ونهب ما كان مع البعض من النقود والفرش[1].

وفى سنة ٨٦٧ هـ (١٤٥٣م) تعرض المجاورون الريافة للطرد من الأزهر بعد أن قاموا بمسك رجل من العوام دخل عليهم رواقهم واتهموه بأنه سرق منهم قبقابا وتكاثروا عليه وضربوه حتى مات والقوا بجثته على باب الجامع ثم خافوا من العقاب فتركوا الرواق وهربوا جميعهم، فلما حضر العوام قاصدين الفتك بهم لم يجدوا أحدا منهم، إلا أن هذه الحادثة أثارت حفيظة الناس عليهم وفقدوا احترامهم عند العامة وانطلقت الألسنة بسبهم وذكر مساوئهم ذاكرين ما يقومون بفعله من القبائح، وظلوا مشردين لم يجرؤ أحد منهم على العودة إلى الرواق إلا بعد أن أمنهم السلطان[2].

---

(١) انظر: المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٥، ٢٧٦ – السلوك جـ ٤ ق ١ ص ٣٢٣، ٣٢٤ – سعيد عاشور. المجتمع المصرى ص ١٦١ خدجى. الأزهر فى ألف عام ص ٦٧، ٦٨.

(٢) أبو المحاسن حوادث الدهور جـ ٢ ص ١٩٣.

ولم تخل حياة المجاورين من بعض التخاصم والتحاسد لاسيما عند الاختلاف على من يستحق من الصدقات التى توزع بالجامع وخاصة أن بعض الواقفين كانوا يشترطون أن توزع صدقاتهم على من ليست له وظيفة مما كان يسبب التخاصم بينهم وصاروا يرافعون بعضهم ويقولون «هذا له وظيفة، هذا له قراءة»[1] إلا أنهم سرعان ما كانوا يتفقون ويتصافون.

وتكونت بالجامع الأزهر بعض المكتبات من الكتب التى وقفها بعض الخيرين على الطلبة المجاورين لعلمهم بحاجتهم إليها وعدم قدرتهم على شراء أمثالها. من ذلك ما تذكره حجة الشيخ سليمان الابشادى من أنه وقف كتبه «على الفقراء والمساكين القاطنين بالجامع الأزهر الذين لا يملكون من الكتب إلا اليسير جدا»[2] وحفاظا على هذه الكتب فقد اشترط الواقف عدم السماح بخروج أى شىء من هذه الكتب خارج الأزهر لابرهن ولا بغيره مع تعيين خازن خاص بها يشرف على عملية تنظيم الاستعارة الداخلية وخدمة القارئين كما حددها الواقف[3]. ويبدو أن كل رواق بالأزهر كانت توجد به مكتبة خاصة بالمجاورين المقيمين به. من ذلك ما أوقفه الشيخ عيسى بن عبد الرحمن الزاواوى المغربى من الكتب «على أبناء جلدته من طلبة العلم والفقراء فى الجامع الأزهر برواق المغاربة بالذات دون غيره من الأروقة»[4].

وهذا ما يؤكد أن الجامع الأزهر كان بمثابة جامعة إسلامية كبرى ضمت الكثير من الطلبة المجاورين من معظم البلاد الإسلامية. بل إن كل جنس من هذه الأجناس كان لمجاوريه رواق خاص داخل الجامع الأزهر مقيمين دائما به فيه سكناهم ومعاشهم، كما توفرت لهم الكتب العلمية التى أعانتهم على دراستهم، بالإضافة إلى محاولة الكثيرين ذوى اليسار والجاه على توفير الطعام اليومى لهؤلاء المجاورين.

جامع ابن طولون :

تعرض هذا الجامع للإهمال فى أواخر العصر الفاطمى ابتداء من عهد الخليفة المستنصر بالله الفاطمى وخرب ما حوله من المساكن، فعدم السكن حوله فانعدمت العناية به «فتشعث الجامع وخرب أكثره»[5] وربما كانت ضخامة الجامع واتساعه سببا فى تعذر الصرف عليه. وفى العصر الأيوبى لم يحظ باهتمام مذكور إذ أهملت إقامة الشعائر به واتخذه المغاربة الوافدين إلى مصر

---

(١) ابن الحيرفى: إنباء العصر ص ٤٨٨.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: مكتبة فى وثيقة ص ١٣، ١٤. تاريخ الوثيقة صفر ٩١٩ هـ.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم: مكتبة فى وثيقة ص ٣٧.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم: وثيقة باستلام كتب كتب ص ١٣.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٧.

سكنا لهم وخصوصا فى موسم الحج حيث كانوا «ينزلون فيه بأباعيرهم»[1] واستمر الحال على ذلك أكثر من مائة سنة. ثم استخدم شونا للغلال فى عهد الظاهر بيبرس. ولقد لعبت الظروف دورا غريبا فى إحياء هذا الجامع وإعادة الحياة الدينية والعلمية فيه، فقد شجع الأمير حسام الدين لاجين الأمير بيدرا على قتل السلطان الأشرف خليل، فلما قام مماليك الأشرف خليل بقتل بيدرا فر لاجين إلى الجامع الطولونى خوفا على نفسه، وكان الجامع على حاله المذكورة من الخراب والإهمال، فأعطى الله عهدا إن سلمه من هذه المحنة ومكنه من السلطنة أن يجدد عمارة هذا الجامع[2]. فلما استولى لاجين على الحكم لم ينس وعده الذى قطعه وأمر بتجديد الجامع ورتب فى شد عمارته وعمارة أوقافه الأمير علم الدين سنجر الدوادارى وعين لذلك مبلغ عشرين ألف دينار عينا وصرف إليه كل ما يحتاجه فى العمارة. واشترط السلطان لاجين على الأمير علم الدين «.. ألا يسخر فيه فاعلا ولا صانعا وألا يقيم مستحثا للصناع ولايشترى لعمارته شيئا من سائر الأصناف إلا بالقيمة التامة وأن يكون ما ينفق عليه من ماله وأشهد عليه بوكالته»[3]. فعمره وأزال ما كان فيه من تخريب وبيضه وبلطه وأقيمت به قبة تعلو المحراب وفسقية تتوسط الصحن ومحرابٌ وابتاع السلطان من بيت المال «منية أندون من الأعمال الجيزيه»[4] ووقفها على المدرسين والطلبة المشتغلين بالعلم وأرباب الوظائف ثم قام بعد ذلك بترتيب الدروس بالجامع فرتب متصدرا لإقراء القرآن وتلقينه لمن يرغب فى ذلك من المسلمين «وينصب رجلا حافظا للقرآن العظيم متقنا له حسن الديانة ينصب لتلقين كتاب الله العزيز لمن يرغب فى ذلك بالجامع المذكور ويصرف له فى كل شهر من الشهور ستون درهما نقرة»[5] ورتب درسا لتفسير القرآن على أن يجلس شيخ التفسير وطلبته الخمسة عشر بالجامع من أول النهار للدراسة والتفسير ويعين لهم الشيخ حفظ ما يعينهم على التفسير ويصرف للشيخ فى كل شهر مائتا درهم نقرة «والطلبة الخمسة عشر مائتا درهم نقرة وخمسون درهما نقرة فى

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٧ – أبو المحاسن. النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٦ ح المحقق.

(٢) انظر المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٧ – أبو المحاسن. النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٦، ١٠٧ – المنهل الصافى جـ ٤ ص ٤٩٣ – ابن اياس: بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٦ – أحمد فكرى – مساجد القاهرة ومدارسها. المدخل. ص ١٠٦، ١٠٧.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٦٧ – العينى: عقد الجمان جـ ١٥ سنة ٦٩٦ هـ

(٤) المقريزى: السلوك جـ ١ ق ٣ ص ٨٢٧ – أبو المحاسن. النجوم الزاهرة جـ ٨ ص ١٠٧ – النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٩ سنة ٦٩٦ هـ – أحمد فكرى: مساجد القاهرة ومدارسها. المدخل ص ١٠٧. حسن عبد الوهاب: تاريخ المساجد ص ٤٥.

(٥) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق.

كل شهر يفرقها الشيخ حسب رأيه ورواتبهم عنده»[1]. والملاحظ هنا أن الشيخ هو الذى يحدد استحقاق كل طالب حسب مكانته العلمية وجدته فى الدراسة، وهذا الشرط من شأنه أن يجعل الطلبة يتفانون فى طلب العلم والعمل على نيل رضاء مدرسهم، كما أنه صحيح من الناحية الشرعية إذ أفتى الشيخ عز الدين بن عبد السلام بأن متولى تدريس المدرسة هو الذى يقرر مقدار الجامكية للفقهاء وينزلهم وليس للناظر فى الوقف إلا تحصيل الريع وقسمته[2].

أما درس الحديث فرتب له شيخا ومعيدا وعشرين طالبا يعين أحدهم نقيبا عليهم، وعين لهم المنهج الدراسى الذى يتبعونه بأن يقوم الشيخ يعاونه المعيد بشرح الحديث النبوى الشريف وأن يعين الشيخ لكل طالب من الطلبة كل يوم حفظ حديث واحد على أن يقوم المعيد بتصحيح ما حفظه الطلبة ومراجعتهم إذ تذكر الحجة «ويرتب لكل طالب من العشرين حفظ حديث واحد فى كل يوم من أيام الاشتغال يتولى المعيد المذكور تصحيح ذلك عليه واستعراضه إياه. ويصرف للشيخ المذكور فى كل شهر مائتا درهم نقره ولمعيده فى كل شهر (ثمانون درهما) وللعشرين طالبا المذكورين فى كل شهر ثلاثمائة درهم نقره ويصرفها فيهم الشيخ بحسب درجاتهم ويكون للنقيب ثلاثون درهما نقره فى كل شهر»[3].

ورتب دروسا للفقه على المذاهب الأربعة لكل درس شيخ ومعيدان وثلاثون من الطلبة، على أن يجلس كل شيخ ومعيداه وطلبته فى كل يوم من الأيام ما بين طلوع الشمس إلى الزوال «فيدرس بحضورهم مذهب إمامه على الرسم المعتاد ويوضح أدلته وبراهينه ويوضح للطلبة ما أشكل عليهم ويوظف عليهم ما يليق لهم من حفظ وبحث فى فروع الفقه وأصوله[4]. ويتولى المعيدان مراجعة ما شرح الشيخ على الطلبة ويقومان بشرح ما لم يفهمه الطلبة أثناء الدرس «ويصرف لكل مدرس من المدرسين الأربعة فى كل شهر مائتا درهم نقره ولكل واحد من المعيدين ثمانون درهما نقره ولكل ثلاثين نفرا من أرباب المذاهب الأربعة خمسمائة درهم نقرة ويصرف كل مدرس لطائفته ما عين لهم على حسب درجاتهم عنده بحيث لا يزيد أحدهم على ثلاثين

---

(١) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق: أنظر حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٧ محفظة ٣ دار الوثائق.

(٢) الزركشى: إعلام الساجد ص ٣٩٧.

(٣) حجة السلطان حسام لاجين ١٨ محفظة ٣ درا الوثائق

انظر: حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٧ محفظة ٣ دار الوثائق ما بين الحاصرتين مأخوذ عن هذه الحجة.

(٤) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق.

درهما ولا ينقصه عن عشرة دراهم نقره وكذلك الشرط فى طلبه التفسير وطلبه الحديث وعلى كل طلبة الاجتماع كل يوم من أيام الاشتغال إلى الزوال»[1].

وجدير بالذكر أنه فى هذا النص قد ترك للمدرس حرية تحديد المرتبات للطلبة كما ذكر ذلك من قبل ولكن خوفا من تغلب الأهواء والميول الشخصية للمدرسين فقد حدد الواقف الحدين الأقصى والأدنى لما يصرف للطلبة.

ولعل الغريب فى هذا الأمر أن يأمر السلطان لاجين بترتيب درس للطب بالجامع الطولونى واشترط فيمن يقوم بالتدريس أن يكون «رجلا عارفا بطب الأبدان مشهور المعرفة للأمراض والأدوية»[2]. ورتب مع الشيخ عشرة من الطلبة لدراسة الطب وقرر للشيخ فى كل شهر مائة درهم «ولعشرة الطلبة فى كل شهر ماية درهم واحدة وخمسون درهما نقره يصرفها فيهم شيخهم على حسب مراتبهم عنده»[3]. على أن يجلس الشيخ والطلبه فى كل يوم بالجامع «ويلزمهم المدرس يحفظ ما يجب حفظه فى الطب وعرضه وتصحيحه ويوضح لهم مشكلة»[4].

وهذا يبين أن هذه الدراسة كانت نظرية فقط كأن يقوم المدرس بقراءة جزء معين من كتب الطب ثم يقوم بشرحه، ويطلب من الطلبة حفظه ثم يقوم بعد ذلك بسؤالهم فيه وتوضيح ما عسر فهمه عليهم. كذلك قام بإنشاء مكتب للسبيل فى زيادة الجامع القبلية لإقراء أيتام المسلمين القرآن الكريم وتعليمهم القراءة والكتابة ورتب به مؤدبا وعريفا يعينه على تأديب الأطفال الخمسين الذين قررهم بالمكتب وتوضح الحجة أنه كان يُصرف «... لكل يتيم من الأيتام المتعلمين فى كل يوم من خبز البر رطلان بالمصرى»[5] وللمؤدب فى كل شهر خمسون درهما وأربعة أرطال من الخبز يوميا.. وللعريف فى كل شهر ثلاثون درهما وثلاثة أرطال من الخبز فى كل يوم[6]، مع صرف ما يحتاج إليه الأيتام فى تعليمهم من ألواح ومداد وأقلام ودوى وكسوتين واحدة فى الصيف والأخرى فى الشتاء[7].

---

(١) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق.

انظر الحجة ١٧ محفظة ٣ دار الوثائق. ما بين الحاصرتين مأخوذ عن هذه الحجة.

(٢) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق.

(٣) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق.

(٤) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق.

(٥) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة ٣ دار الوثائق.

(٦) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة دار الوثائق.

(٧) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة دار الوثائق.

كما قرر فى الجامع الكثير من أصحاب الوظائف من الأئمة والقراء والفراشين والقومة كما رتب بسطح الجامع دكة للميقاتية لتحرير الوقت[1].

وفى سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥م رتب به الأمير يلبغا العمرى درسا للحنفية وعين به سبعة من المدرسين وقرر لكل فقيه من الطلبة أربعين درهما فى الشهر علاوة على أردب من القمح. وكان لكثرة المعلوم الذى يتناوله الطلبة أن انتقل جماعة من الشافعية إلى المذهب الحنفى ليتمكنوا من الالتحاق بهذا الدرس[2].

ويبدو أنه استجد بالجامع درس للقراءات إذ يذكر السيوطى أن النويرى المقرى أحد أئمة المالكية تولى الإقراء بالجامع الطولونى[3].

على أية حال فقد ارتفعت مكانة الجامع العلمية وأصبح من المدارس الكبيرة مثله فى ذلك مثل مدرسة السلطان حسن والشيخونية وغيرها. إذ يذكر فى ترجمة عزالدين أحمد بن إبراهيم العسقلانى (المتوفى سنة٨٧٦هـ-١٤٧١م) أنه تولى التدريس بغالب المدارس العظيمة كالجامع الطولونى[4].

ويبدو أن دراسة الحديث بوجه خاص كانت لها من الشهرة والمكانة ما دفع الكثير من الحفاظ وشيوخ الحديث للتدريس به[5]. أيضا كان يقوم بتدريس الفقه والتفسير به الكثير من مشاهير العلماء والمدرسين[6]. وبلغت النفقة السنوية على أرباب الوظائف بالجامع حوالى مائة ألف درهم. ورغم ذلك فقد حاول القاضى بدر الدين بن جماعة[7] (المتوفى سنة ٧٣٣هـ-١٣٣٢م) قطع أرزاق شيخ السبحة والفقراء المسبحين والقراء وأيتام المكتب بحجة أن المتحصل البالغ مائة ألف لا تفى إلا بحاجة القومة والمدرسين والطلبة.

---

(١) حجة السلطان حسام الدين لاجين ١٨ محفظة دار الوثائق

انظر: ابن أياس. بدائع الزهور جـ ١ ص ١٣٦.

(٢) المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٢٦٨.

(٣) السيوطى. نظم العقيان ص ١٢٠.

(٤) السيوطى. نظم العقيان ص ٣١.

(٥) المقريزى. السلوك جـ ٣ ق ٢ ص ٨٧٧ - أبو المحاسن. حوادث الدهور جـ ١ ص ٤٠ ، ١٦٠ - السخاوى. الضوء اللامع جـ ١ ص ١٦٠ - العيدروسى. النور السافر ص ١١٠.

(٦) ابن حجر. الدرر الكامنة جـ ٣ ص ١٥٤ - ١٥٥، ص ١٦٩، ص ٤٤٩ - ٥٠٠، إنباء الغمر - جـ ١ ص ٢٢٩- ابن الصيرفى. إنباء العصر ص ٣٠٩ - ٣١١ السخاوى. الضوء اللامع جـ ١ ص ١٣٤، ١٣٥ - جـ ٥ ص ٣٠١.

(٧) ابن حجر. الدرر الكامنة جـ ١ ص ١٨٦، ١٨٧.

جامع الحاكم :

يبدو أن النشاط به طوال العصر الأيوبى وفترة من العصر المملوكى ظل قاصرا على إقامة الشعائر الدينية ولم يكن به نشاط علمى ملحوظ، إلى أن حدث بمصر زلزال سنة ٧٠٢ هـ (١٣٠٢ م) وكان من العنف أن تهدمت كثير من منائر المساجد وتصدعت كثير من المبانى والجوامع منها جامع الحاكم الذى تشققت سقوفه وجدرانه وتهدمت أعالى مآذنه. فاهتم الأمراء بتجديد ما تهدم من المدارس والمساجد وانتدب السلطان الناصر محمد بن قلاون الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير لعمارة الجامع الحاكمى[1]. فأبتدأ العمل فى عمارته فى أوائل سنة ٧٠٣ هـ (١٣٠٣م) وقام بترميم جدرانه وسقوفه وبناء ما تهدم منه، وجدد المآذن وبلط أرضيته وبيضه، ووقف عليه عدة أوقاف للصرف منها على مصالحه. ورتب به دروسا لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ودرسا للحديث النبوى وعدة دروس فى القراءات والنحو كما رتب به ميعادا ومؤدبا لتعليم الأيتام القرآن الكريم.

اختار الأمير بيبرس قضاة القضاة الأربعة لتولى التدريس بالجامع الحاكمى كلٌ منهم لتدريس فقه مذهبه، فتولى تدريس الشافعية قاضى القضاة بدر الدين محمد بن جماعة وفى درس المالكية قاضى القضاة زين الدين على بن مخلوف وفى درس الحنفية قاضى القضاة شمس الدين أحمد السروجى وفى درس الحنابلة قاضى القضاة شمس الدين عبد الغنى الحرانى[2] ويذكر لنا النويرى أن الأمير بيبرس قد خصص لكل شيخ من قضاة القضاة المذكورين عن وظيفه التدريس فى كل شهر مائة وثلاثين درهما نقرة، ويساعد كل شيخ من الشيوخ اثنان من المعيدين يصرف لكل واحد منهما فى كل شهر خمسون درهما، ورتب لكل درس عدة من الطلبة على أن يصرف لطلبة كل مذهب فى كل شهر ثلاثمائة درهم نقرة[3]. أما درس الحديث فقد تولى تدريسه الشيخ سعد الدين مسعود الحارثى يعاونه معيدان على أن يصرف للشيخ والمعيدين والطلبة نظير ما يصرف لكل طائفة من الطوائف المذكورة فى دروس الفقه[4]. ورتب بالجامع مشيخة للميعاد- تولى إلقاء الوعظ والإرشاد بها القاضى مجد الدين الخشاب ويصرف له فى كل شهر مائة

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٢ – المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٢٧٧ – السيوطى. حسن المحاضرة جـ ٢ ص ١٨٤.

Lane. Poole: The story of Cairo, p. 137.

(٢) النويرى. نهاية الأرب جـ ٣ ق ١ سنة ٧٠٤ – المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٢٧٧ – خفاجى الأزهر فى ألف عام ص ٧١.

(٣) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٤.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٤.

وثلاثون درهما ومتصدرين لإقراء القرآن، لكل واحد منهما ستون درهما وملقنين لتلقين القرآن الكريم لكل منهما فى كل شهر ثلاثون درهما بالإضافة إلى عشرين متلقنا يصرف لكل واحد منهم فى كل شهر عشرة دراهم[1].

ورُتب فى تدريس النحو الشيخان أثير الدين أبو حيان والشيخ تاج الدين محمد البارنبارى ويصرف لكل واحد منهما فى كل شهر ثلاثون درهما. ومتصدران لإلقاء العلوم هما الشيخ علاء الدين القونوى والشيخ زين الدين الكنانى ولكل واحد منهما فى كل شهر ستون درهما[2]. وفى درس القراءات الشيخ نور الدين الشطنوفى[3].

أما مكتب الأيتام فقد رُتب به فقيهان ومعهم عدة من أطفال المسلمين الأيتام لتأديبهم وتعليمهم القرآن الكريم ورُتب للمؤدبين فى كل شهر من الشهور خمسون درهما لكل واحد منهم خمسة وعشرون درهما على أن يصرف للأيتام من النقود ما يكفيهم على العادة فى مكاتب الأيتام[4].

ثم رتب الأمير بيبرس بالجامع المؤذنين والقومة والفراشين وثلاثة أئمة مالكى وحنفى وحنبلى يؤمون بالصلاة فى الجامع. وعين لكل واحد منهم ثلاثين درهما، وعشرين مقرئا يتلون القرآن عقب صلاة الصبح والظهر والعصر والمغرب لكل واحد منهم عشرة دراهم[5].

وأنشأ بالجامع خزانة كتب ووقف بها نحوا من خمسمائة مجلد من كتب العلوم والآداب والتواريخ وغير ذلك، ووقف ربعة شريفة مكتوبة فى ورق بغدادى مذهبة بماء الذهب صرف عليها مبلغا كبيرا من المال فى أجرة كاتب وأجرة تذهيبها وتزميكها وتجليدها وذلك للقراءة منها فى كل جمعة قبل الخطبة، ورتب لها قارئا يصرف له راتبا فى كل شهر[6].

وحفر بصحن الجامع صهريجا ليملأ بماء النيل فى كل سنة لتسبيل الماء وشرب من يتردد على الجامع من أصحاب الوظائف والمصلين حتى بلغت جملة ما أنفقه على إصلاحه وأوقافه

---

(١) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٤.

(٢) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٤.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٧.

(٤) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٤ – المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٧.

(٥) النويرى: نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ ص ٧٠٤ هـ.

(٦) النويرى نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٤ هـ.

زيادة على أربعين ألف دينار[1]. وابتداء التدريس به فى أول شهر ربيع الأول سنة سبعمائة وأربعة (أكتوبر سنة ١٣٠٤ م).

واستمرت العناية والإصلاح بالجامع ففى سنة سبعمائة وستين (١٣٥٨ م) كلف السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاون الشيخ قطب الدين الدين محمد البِرماس بتجديده وتبليطه ثم جدد السلطان بعض الأوقاف على البرماس للصرف منها على مرمة الجامع وما يحتاج إليه فى زيت الوقود وزيادة فى معلوم الإمام[2]. وقد ظل الجامع محتفظا بمكانته العلمية يدرس به القضاة والعلماء، وممن كان يقوم بالتدريس فيه حتى عام ٧٦٦ هـ (١٣٦٤ م) قاضى القضاة تقى الدين أحمد المقدسى الحنبلى[3].

ويبدو أن المباشرين على هذا الجامع أهملوه ولم يعتنوا بترميمه فتلف بياضه وبلاطه وسقط بعض من سقوفه ففوض السلطان نظره إلى الأمير دولت بيه الدوادار وأنعم برسم عمارته بألف دينار فقام الأمير بترميمه ومنع مرور النساء والصبيان فيه وتشدد فى جباية ريعه واستولى على جميع ما هو موقوف عليه وهو من ثلاث جهات، وقف الجامع القديم، ووقف بيبرس الجاشنكير ووقف الناصر حسن، وأعاد الجامع إلى مكانته الأولى[4].

التعليم داخل المؤسسات الصوفية:

وهى الأماكن التى أعدت لإقامة الصوفية وانقطاعهم فيها وسميت بالخوانق والزوايا والربط، ورغم اختلاف هذه الأسماء إلا أنها جميعا قامت لخدمة غرض واحد. إذ إن الخانقاة وهى أصلا كلمة فارسيه معناها البيت أو الدار التى يختلى فيها الصوفية لعبادة الله تعالى[5] وغالبا ما كان يقوم بإنشائها أحد السلاطين أو الأمراء أو غيرهم من ذوى اليسار والتقوى، وترتيب بعض الأوقاف للصرف من ريعها على من ينزل فيها من الصوفية. والزاوية وهى مأخوذة من الفعل انزوى وبمعنى اتخذ ركنا من أركان المسجد للاعتكاف والتعبد. وانشئت الزوايا أول الأمر ملحقة بالمساجد ثم تطورت إلى أبنية صغيرة للصلاة والعبادة يتخذها أحد المشايخ المشهورين بالتقوى

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٧.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٢٧٨.

(٣) المقريزى: السلوك جـ ٣ ق ١ ص ٢٤٩.

(٤) المقريزى: السلك جـ ٤، ق ٣ ص ١٢٢٣.

(٥) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤١٣ – سعيد عاشور. المجتمع المصرى ص ١٦٨ أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ ٩ ص ١٤٤ حاشية ١ للمحقق.

Stengass. Persian English Dictionary.

والصلاح مسكنا له ولمن يرد عليه من العابرين، ويقوم بالوعظ والإرشاد فيها لمن يتردد عليه من الناس[1]، وكذلك تطلق الزاوية على الرباط الذى تنشئه إحدى الفرق الصوفية. أما ابن بطوطة الذى شاهد بمصر الكثير من الخوانق والزوايا فإنه لم يستطع أن يفرق بين الاثنين واعتبرهما مكانا واحدا وخلط بينهما بقوله «. . . وأما الزوايا فكثيرة وهم يسمونها الخوانق»[2].

ومع ذلك فإن هناك بعض الاختلافات الشكلية فى طريقة التمويل لكل من الخانقاة والزاوية وكذلك اكتساب اسم كل منهما. إذ إن الخانقاة غالبا ما تتخذ اسمها من منشئها الذى يقوم بتمويلها والصرف عليها، فى نفس الوقت لم يكن الواقف المنشئ للخانقاة من جملة الصوفية النازلين بها. وذلك بعكس الزاوية التى غالبا ما تتخذ اسمها من اسم شيخها بصرف النظر عما إذا كان الشيخ هو المنشئ لها أو غيره من الناس، كذلك غالبا ما يقوم شيخ الزاوية بالصرف عليها واستقبال وخدمة من يأتى إليه من الصوفية أو الزوار ممن أرادوا الانتفاع بعلمه أو التماس بركته. ثم إن هناك بعض أوجه الخلاف الأخرى. إذ إن كل الخوانق بها صوفية مرتبون بها[3] يقومون بأداء وظيفة التصوف فى الأوقات التى يعينها لهم الواقف ويتقاضون رواتب شهرية نظير ذلك بعكس الزوايا إذ ليست كل الزوايا بها صوفية منتظمون منقطعون للعبادة، أو يتقاضون رواتب شهرية من شيخ الزاوية فالكثير من الزوايا غالبا ما يقيم بها الشيخ بمفرده أو بأسرته، يذكر ابن بطوطة أنه سمع أثناء إقامته بالإسكندرية بأبى عبد الله المرشدى المنقطع بزاويته بمنية بنى مرشد «. . . وهو منفرد فيها لا خادم له ولا صاحب يقصده الأمراء والوزراء وتأتيه الوفود من طوائف فى كل يوم فيطعمهم الطعام»[4] ثم يقول «ولما دخلت على الشيخ قام إلى وعانقنى وأحضر طعاما فواكلنى.. ولما أردت النوم قال لى أصعد إلى سطح الزاوية فنم هناك»[5] أما الشيخ ابن منظور فقد أتخذ له زاوية بظاهر المقس ونزل بها جماعة من الفقراء مقيمين بها على الدوام وهو متكفل بأمر خدمتهم «... ويخدم من يرد عليه من المسافرين

---

(١) سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٦٩ – حسن إبراهيم: تاريخ الإسلام جـ ٤ ص ٤٢٣.

(٢) ابن بطوطة تحفة النظار ص ٢٧.

(٣) انظر: حجة السلطان بيبرس الجاشنكير ٢٣ محفظة ٤ دار الوثائق – حجة السلطان الناصر حسن بن قلاوون ٢٥ محفظة ٤ دار الوثائق – حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف – حجة مغطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف.

(٤) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ١٩.

(٥) ابن بطوطة: تحفة النظار ص ٢٠.

والزوار... وكان له جدة كبيرة وصدقة وبر ويتكلم فى زاويته على طريق الوعاظ»[1]. وفى بعض الأحيان كان يتكفل أحد السلاطين أو الأمراء أو بعض الأهالى بالإنفاق على بعض الزوايا[2].

أما الرباط فهو فى الأصل البناء المحصن الذى يقام قرب الحدود. والمرابطة: ملازمة ثغر العدو[3] إلا إن الرباط يطلق أيضا على الدار التى يسكنها أهل طريق الله إذ يرى الصوفية فى قوله تعالى ﴿ وصابروا ورابطوا ﴾ أى واظبوا على مواقيت الصلاة وقيل إن المقيم فى الرباط على طاعة الله يدفع بدعائه البلاء عن العباد والبلاد فاعتكاف الصوفى بالرباط على طاعة الله إنما يكون مرابطا فى انتظار الصلاة بعد الصلاة[4].

والرباط بذلك الوصف لا يتعدى أن يكون هو الآخر زاوية أو خانقاة ويؤيد ذلك ابن الحاج «... الرباط وهو فى عرف العجم الخانقاة»[5].

وهكذا نجد أن الخانقاة والزاوية والرباط قد تشابهت معانيها فى تلك الفترة بمصر حتى أختلط الأمر على المعاصرين ولم يستطيعوا التمييز بين أسمائها ووظيفة كل منها حتى المقريزى فى تعريفه لكل نوع لم يخرج عن معنى واحد أنها كانت جميعا بيت الصوفية ومنزلهم[6].

أما عن الحياة العلمية داخل المؤسسات الصوفية فلم تكن واضحة فى تلك الفترة اللهم إلا بعض العلوم يقوم الصوفية بدراستها من تلقاء أنفسهم والتى تساعدهم على التعمق فى علم التصوف وفهمه. إذ لابد لهم من التبحر فى علوم الشريعة والحديث[7]،بالإضافة إلى بعض العلوم المساعدة الأخرى كالتفسير وأصول الدين وغيره من العلوم. ويمكن القول: إنه كانت بالمؤسسات الصوفية حياة علمية نشيطة، ولكن من نوع خاص يقوم به الصوفية بدون أن يكون لذلك وقت معين أو طبقا لشروط محددة من قبل الواقف. ودليلنا على ذلك ما جاء بكتاب تولية الشيخ شمس الدين محمد مشيخة الشيوخ بخانقاة سعيد السعداء «... ومن إذا قال خير معقول ومنقول وأثنى على سامعيه بمعرفة ما يقول يفتى فى التصوف والشرع ويتحدث فى الأصل

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٣٠ – اليونينى: ذيل مرآة الزمان جـ ٣ ص ٢٨٠، ٢٨١.

(٢) انظر: حجة السلطان قايتباى ٩١٢ أوقاف – حجة محمد نور الدين العتباتى ٩٦ أوقاف – حجة جوهر عبد الله المعينى ٢٣٨ محفظة ٣٦ دار الوثاق.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٢٦ – سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٦٨.

(٤) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٢٦

(٥) ابن الحاج: المدخل جـ ٣ ص ١٨٥.

(٦) سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٦٩.

(٧) الشعرانى: الأنوار القدسية ص ١٢.

والفروع ويبحث فى التفسير والتأويل ويكشف عن أسرار التنزيل وينطق بإحياء علوم الدين، ويحظى منه بقوت القلوب عن يقين ويقتدى به فى الفقه والورع ويؤخذ عنه محاسن المصطفى فى الدين وما شرع».[1] وهذا يبين أيضا أن طريق الصوفية مضبوط بالكتاب والسنة[2]. فيجب عليهم أن يكونوا عالمين بما جاء بهما باحثين فى فروع المعرفة المتعلقة بهما، هذا بالإضافة إلى ما يدرسونه من كتب التصوف التى ألفها أئمة المتصوفين فى حقيقة المذهب وفلسفته مثل قصائد الشيخ ابن الفارض وخاصة قصيدته نظم السلوك التى كانت موضوعا يشتغل به ويقبل على دراسته الصوفية المقيمون فى المؤسسات الصوفية وغير ذلك من كتب ابن عربى وغيره من أعلام التصوف. فكانت حياتهم جامعة لحياة العباد الصالحين الذاكرين القائمين وحياة العلماء العاملين[3]. ومما يدل على وجود هذه الحياة ما ذكره ابن الصيرفى أن الصوفية بخانقاة سعيد السعداء قبضوا على زميل لهم يعرف بابن الخليل بسبب أنه فتح حاصل قمح المدرسة بالخانقاه واختلس منه، وكان هذا الحاصل مرصدا لخبز الفقهاء فضرب بالمقارع وسجن.[4] وهذا ما يؤكد مشاركة خانقاة سعيد السعداء فى النشاط التعليمى. غير أن الحياة التعليمية داخل الخوانق كانت تختلف عنها داخل الزوايا أو الربط، إذ كانت الدراسة بالخوانق قد اتخذت صورة منظمة تتبع نظم وشروط الواقف بخلاف الزاوية أو الرباط حيث كان الأمر مفوضا لتصرف شيخ الزاوية أو الرباط فكثرت بها الدروس فى فروع مختلفة من العلوم.

وقد بدأت الخانقاة تأخذ صورة المعهد العلمى الذى يقوم الصوفية فيه بجانب قيامهم بوظيفتهم الأساسية وهى التصوف وما يتبعها من أمور متعلقة بها من الأذكار وغير ذلك إلى العمل على طلب العلم وحضور الدروس التى يعينها لهم الواقف على الخانقاة، وقد بدأ هذا التغيير طفيفا فى أول الأمر إذ تذكر حجة مغلطاى الجمالى «... ويرتب بالخانقاة المذكورة شيخا محدثا عالما حنفيا من أهل الخير والديانة حسن الطريقة والعفاف سالكا طريق أهل السنة ويرتب معه عشرين من الفقراء المتصفين بالخير والديانة المتخلين عن الاكتساب المشتغلين بالعلم الشريف...»[5] وهكذا نجد أن مغلطاى الجمالى شرط فى شيخ الصوفية أن يكون عالما محدثا لكى يقوم بإفادة ما عينه معه من الصوفية فى علم الحديث بالإضافة إلى قيامه بتدريس فقه

---

(١) ابن عبد الظاهر: تشريف الأيام ص ٣٣٤.

(٢) السبكى: معيد النعم ص ١٢١.

(٣) محمد مصطفى: ابن الفارض ص ٤٥ – انظر أحمد أمين – ظهر الإسلام جـ ٤ ص ٢٢٢ – ٢٣١.

(٤) ابن الصيرفى: إنباء الهصر من ٢٢٢.

(٥) حجة مغلطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف.

مذهبه وهو المذهب الحنفى، كما اشترط فى الصوفية أن يكونوا من المشتغلين بالعلم الشريف، أى إن وظيفة الاشتغال بالعلم أصبحت وظيفة أساسية بجانب ما يقوم به الصوفية من ممارسة حياة التصوف داخل الخانقاة. وحدد للشيخ والصوفية أن يجتمعوا كل يوم بالايوان القبلى من الخانقاة بعد صلاة الصبح وبعد قراءتهم لما تيسر من القرآن الكريم أن يبدءوا بالاشتغال بالعلم فيتصدر الشيخ «ويذكر لهم درسا من العلوم الشرعية والأحاديث النبوية ويبحثون بحضرته على العادة فى المدارس»[1] على أن يقوم الصوفية وشيخهم فى كل يوم بعد صلاة العصر بقراءة ختمة كاملة من الربعة الشريفة والدعاء للواقف والمسلمين، وهذا ما يعرف بدرس التصوف اليومى فيكون درس الصباح فى العلوم الشرعية والحديث هو ما استجد رسميا فى هذه الخانقاة لأنه من شرط الواقف مغلطاى الجمالى. كما رتب أيضا درسا للميعاد بالخانقاة ينصب الشيخ له يوم الجمعة بعد صلاة العصر ويعاونه قارئ ميعاد حسن الصوت من جملة الصوفية العشرين «فيقرأ القارئ المذكور بحضرة الشيخ ومن عساه يحضر من ساير المسلمين ما تيسرت له قراءته من كتب تفسير القرآن الكريم ومن كتب الحديث النبوى المشهورة المعتمدة ومن كتب الرقائق والأذكار ويدعو عقيب القراءة للواقف والمسلمين»[2].

وجهز مغلطاى الجمالى مكانا بالخانقاة ليكون مكتبة «وأما الخزاين الكتبية التى بايوانها المذكور فيحفظ فيها ما لعله يكون بهذه الخانقاة من الكتب الموقوفه والربعات الشريفة..»[3] وبالإضافة إلى ذلك أنشأ مغلطاى مكتبا للسبيل «وأما الموضع المعروف بمكتب السبيل فوقفه ليستقر فيه الأيتام الآتى ذكرهم ومؤدبهم فى الأوقاف المشروطة عليهم ليعلمهم المؤدب المذكور..»[4].

أما الخانقاة كجامعة فإننا نجدها بهذه الصفة فى خانقاة الجمالى يوسف الاستادار حيث رتب بها مائة وثلاثة عشر صوفيا على أن يجتمعوا هم وشيخهم فى كل يوم بعد صلاة العصر بايوان الخانقاه القبلى وبغيره من الأواوين ويقرأ لكل منهم حزبين من القرآن ثم يذكروا الله تعالى بما تيسر لهم من الذكر والتهليل والتسبيح والاستغفار والصلاة على النبى ﷺ والدعاء للواقف والمسلمين على النظام المتبع داخل الخانقاوات. ورتب عدة دروس فى الفقه على المذاهب

---

(١) حجة مغلطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف.

(٢) حجة مغلطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف.

(٣) حجة مغلطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف.

(٤) حجة مغلطاى الجمالى ١٦٦٦ أوقاف.

الأربعة ودروسا للحديث النبوى ودرسا فى القراءات وغير ذلك. فرتب مع الشيخ الشافعى «... من عدة الصوفية المذكورين من غير المجردين عشرين نفسا من طلبة العلم الشريف الشافعية المذهب المستعدين للطلب والصالحين للفهم»[1] على أن يجلس الشيخ وطلبته الصوفية بالايوان القبلى من الخانقاة ويشغل الطلبة بفقه مذهبه ويبين لكل منهم «ما يشكل عليه فيما يشتغل عليه فيه من كشف غامض وحل مشكل وتسهيل عليه فهم ما عسر فهمه ويسلك مسلك الإفادة والتعليم... وإن أراد واحد منهم الاشتغال عليه بعلم من علوم الشريعة بمثل تفسير وحديث نبوى وأصول وعربية وغير ذلك مما يكون الشيخ عالما به فيشغله ويفيده ويعلمه من ذلك ما يحتمل تعلمه»[2] ومن هذا النص يتضح لنا وجود نوعين من التعليم داخل الخانقاة:

النوع الأول: العلم الذى يرتب الصوفى للاشتغال به داخل الخانقاة ويكون الصوفى ملزما بحضور الدرس ويؤاخذ إذا تخلف عن حضوره طبقا لما يحدده الواقف.

النوع الثانى: وهو التعليم الحر بحيث إذا وجد الصوفى فى نفسه القابلية ليتعلم علما آخر غير ما خصص له فعلى شيخ طائفته أن يقوم بشرح ذلك له والعمل على إفادته فيما يطلب الدراسة فيه من العلوم الخاصة بعلوم الشريعة والتفسير وأصول الدين واللغة العربية بموكوناتها من نحو وصرف وبيان وبديع وغير ذلك من العلوم.

وكذلك الحال مع طلبة المذاهب الأخرى الحنفية والمالكية والحنابلة على أن يكون مع كل شيخ من الشيوخ المعينين لتدريس الفقه على هذه المذاهب عشرة طلاب من الصوفية.

أما درس الحديث فقد رتب جمال الدين الاستادار له شيخا بشرط أن يكون عالما بعلوم الأحاديث النبوية من حال الرواة جرحا وتعديلا له المقدرة على تبيان صحيح الأحاديث من سقيمها[3] ويرتب مع الشيخ عشرة طلاب من الصوفية من غير المجردين بشرط أن يكونوا صالحين للاشتغال بالحديث على أن يجتمع الشيخ وطلبته فى كل يوم من أيام الدراسة بالايوان البحرى من الخانقاة ويبدأ درسه بأن يقرأ عليه أحد الطلبة ما تيسر له قراءته «من كتب الصحاح الستة فى الحديث ويفيدهم الشيخ المذكور ما يحتاج إلى الاشتغال به من علوم الحديث وما قاله أهل العلم ونقله الحفاظ فى ذلك...»[4] ومن أول شهر رجب إلى آخر شهر رمضان يتغير

---

(١) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٢) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٣) انظر حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٤) حجة جمال الدين الاستادر ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

نظام الدراسة بدرس الحديث فقد حدد جمال الدين الاستادار أن يكون الاشتغال من أول شهر رجب إلى آخر شعبان بأحد كتب الصحاح الستة ما عدا صحيح البخارى على أن يتصدر شيخ الحديث المذكور لإسماع الطلبة ومن يحضر معهم بالخانقاة من المسلمين الراغبين فى دراسة الحديث. وفى شهر رمضان يبدأ شيخ الحديث بشرح صحيح البخارى ويعاونه فى ذلك قارئ له خبرة ومعرفة بقراءة الحديث «.. فيقرأ ذلك بين يدى الشيخ المذكور على مكان مرتفع ليعم السماع من بعد وقرب من الحاضرين يفعل ذلك بالخانقاة المذكورة فى كل سنة فى الأشهر الثلاثة المذكورة»[1].

أما درس القراءات السبع فقد رتب جمال الدين الاستادار به شيخا عالما حافظا للقرآن الكريم متقنا للقراءات السبع ورتب «من طايفه المجردين الذين هم من عدة الصوفية المذكورين أعلاه عشرة أنفس لهم أهلية الاشتغال بالقرآن العظيم..». [2] على أن يقوم الشيخ بتفهيمهم القرآن وشرحه لهم، هم ومن يحضر معهم بالخانقاة ممن له رغبة فى دراسة ذلك ويعلمهم الشيخ تجويد القرآن وتعليمهم تلاوته بالطرق السبع، وترك للشيخ اختيار المكان الذى يجلس به هو وطلبته بالخانقاة فى أيام الاشتغال بالدروس «... فى الوقت الذى وقت لدروس العلم أعلاه ومقداره ويزاد فى الوقت إن أحتاج الوقت إلى الزيادة»[3]. ورتب بدرس التفسير شيخا من علماء التفسير إذ تذكر الحجة أن يكون «.. من علماء التفسير وكتاب الله العزيز ويرتب معه عشرة أنفس من الطلبة الحذاق ذوى الفطنة والذكاء والنباهه والأهلية وتلقى ما يفيده شيخهم من الفوايد الجليلة ويلقيه من المسائل الخفية وفهم الغوامض من ذلك». [4] ويقوم بتفسير آيات القرآن الكريم لطلبته وإفادتهم بما يجهلونه فى ذلك ويرشدهم إلى ما يحتاجون إليه فى بحثهم ومن وجد من الطلبة صعوبة أو مشكلة أثناء بحثه قام الشيخ بدراسة ذلك معه وبين له ما غمض وأشكل عليه. على أن يكون وقت الاشتغال بتدريس التفسير فى كل يوم من أيام الدراسة فى الفترة من «وقت صلاة الظهر إلى آذان العصر أو مقدار ذلك فيما بين طلوع الشمس إلى آذان العصر من كل يوم بحيث لا يزاحمهم الصوفية وقت حضور وظيفة التصوف»[5] ومن ذلك يتضح أن طلبة التفسير لم يكونوا من جملة الصوفية المنزلين بالخانقاة لأنه لم يشترط أن يكون الطلبة

---

(١) حجة جمال الدين الاستادر ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٢) حجة جمال الدين الاستادر ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٣) حجة جمال الدين الاستادر ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٤) حجة جمال الدين الاستادر ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٥) حجة جمال الدين الاستادر ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

من الصوفية مثلما شرط ذلك فى باقى الدروس ولم يشترط عليهم حضور وظيفة التصوف كما شرط فى باقى الطلبة إذ إنه لم يستثن من ذلك سوى النواب وخازن الكتب، كما اشترط ألاّ يزاحمهم الصوفية وقت حضور وظيفة التصوف مما يؤكد أنهم لم يكونوا من جملة صوفية الخانقاة.

ولم تقتصر الحياة العلمية بالخانقاة عند ذلك بل توفرت لهم مكتبة ضخمة عامرة بالكتب القيمة ولها خازن يقوم بخدمة من يرد إليه من الطلبة وغيرهم ممن يريد الاطلاع أو الاستعارة إذ تذكر الحجة «ويرتب من الصوفية المذكورين من غير المجردين شخصا من أهل الخير والديانة والصيانة والأمانة يكون خازنا لما بالخانقاة المذكورة من الربعات والمصاحف وكتب العلم الشريف..» [1].

وحتى تكتمل صورة الخانقاة العلمية فقد كان مرتب بها مكتبا لتعليم الأيتام وأبناء الفقراء القرآن الكريم ومبادئ القراءة والكتابة إذ تذكر حجة جمال الدين الاستادار أيضا «ويرتب الناظر أيضا من عدة الصوفية المذكورين أعلاه من غير طائفة المجردين رجلا حافظا لكتاب الله العزيز ذا عقل وعفة وصيانة متزوجا زوجة تعفه صالحا لتعليم القرآن والخط والآداب ويجعله معلما للأيتام بمكتب السبيل المذكور أعلاه ويرتب عنده عشرين نفسا من أيتام المسلمين..» [2].

أما الزوايا والربط فقد اختلف الوضع فيها وإن معظم المشايخ كانت لهم الحرية فى ترتيب بعض الدروس وخاصة علوم الفقه والحديث اعتمادا على شهرة الشيخ فى الأوساط العلمية، وقدرته على أن يوفر لمن يحضر إليه من الطلبة بعض المعاليم التى تعينهم على معيشتهم، واستمرارهم فى تحصيل العلم كما هو متبع فى المدارس، فقد اتخذ إبراهيم بن موسى شيخ خانقاة سعيد السعداء لنفسه زاوية بالمقس ورتب بها بعض الدروس فى الفقه، وصار يحسن إلى من يحضر إليه من الطلبة ويوفر لهم ما يأكلونه بها ويسعى لهم فى الأرزاق، ووفر لهم داخل الزاوية مكتبة وقف بها الكثير من الكتب وصارت لهذه الزاوية مكانتها العلمية حتى إن أكثر فضلاء الطلبة بالقاهرة كانوا من تلامذة الشيخ إبراهيم. وممن أخذ عنه من العلماء الولى العراقى، والجمال بن ظهيره، وابن الجزرى، وابن حجر وغيرهم[3]. وكثيرا ما كان العلماء والفقهاء

---

(١) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٢) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٣) السخاوى. الضوء اللامع جـ ١ ص ١٧٢ : ١٧٣ المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٤٣٤.

يتخذون من بعض الزوايا مكانا لاجتماعاتهم ومناقشاتهم العلمية وذلك يرجع بالدرجة الأولى إلى مكانة شيخ الزاوية بين العلماء والفقهاء وقدرته على إفادة الوافدين إليه منهم، فقد اتخذ الشيخ عبد الله بن عمر المتوفى سنة ٨٩٧ بزاوية جده بالأبارين بقرب الجامع الأزهر «.. موعدا لإسماع المشايخ فلذلك كثرت سماعات شيخنا وأكثر ما حدث به عن أصوله وفى الجملة لم يكن فى شيوخ الرواية من شيوخنا أحسن أداء ولا أصغى للحديث منه»[١] كما يذكر المقريزى أنه سمع الحديث بزاوية الحلاوى على الشيخ جمال الدين عبد الله[٢]. ووجد من شيوخ الزوايا من برع فى بعض الفنون الأخرى بالإضافة إلى العلوم الدينية فقد امتاز الشيخ شمس الدين فى علم الموسيقى حتى صار إمام أهل عصره فى هذا العلم وتتلمذ على يديه الكثير من أكابر علم النغم وقرأوا عليه، وكان الشيخ شمس مقيما بزاويته بجوار المشهد الحسينى، وألف كتابا فى فن الموسيقى سماه «غاية المطلوب فى علم الأنغام والضروب سمعت مقدمته منه بمنزله انزاوية المذكورة... وقال لى ظهر خطأ جماعة من المتقدمين فى هذا الفن مثل الفارابى وغيره وقد برهنت على ذلك»[٣].

ولم تخل بعض الربط من النشاط العلمى كالرباط الذى أنشأه الصاحب تاج الدين فقد قرر فيه درسا للفقهاء الشافعية وتولى تدريسه الشيخ برهان الدين الأبناسى ورتب عنده عدة من الطلبة ولهم معلوم جار فى كل شهر كما كان بهذا الرباط أيضا خزانة للكتب[٤]. وأحيانا يكون شيخ الرباط أحد العلماء البارزين مثل الرباط الصاحبى الفخرى الذى تولى مشيخته الفقيه العالم المحدث تقى الدين المشهور بالصوفى[٥]. وهذا من شأنه أن يجذب الكثير من طلبة العلم إلى الرباط للاستفادة من شيخه طالما أنه من العلماء المحدثين. كذلك كانت هناك بعض الربط الخاصة بالنساء وكانت شيخة الرباط تقوم بوعظ النساء وتفقيهمن بأمور دينين[٦]. وكذلك كانت هناك بعض الربط بقوص التى قام بعض الشيوخ بالتدريس فيها[٧]. وقد اتخذت بعض الربط

---

(١) ابن حجر: إنباء الغمر جـ ٢ ص ٣٠٥.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٣١.

(٣) ابن أيبك الصفدى: الوافى بالوفيات جـ ٤ ص ٣٠٥، ٣٠٦.

(٤) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ١٠٢، ١٠٣ - المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٤٢٨.

(٥) ابن دقماق: الانتصار جـ ٤ ص ١٠١.

(٦) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٢٧.

(٧) الادفوى: الطالع السعيد ص ٢٢٧.

والزوايا كمعاهد للتعليم بصورة منظمة من ذلك ما نذكره حجة زين الدين صدقه «... ويرتب الناظر أيضا أربعة أنفس من الرجال الفقراء المجردين الطلبة الافاقية المشتغلين بفروع مذهب الإمام الشافعي يقيمون بالزاوية المذكورة ليلا ونهارا على العادة ويحضرون الدرس بالزاوية كل يوم لمدة ثلاثين درجة رملية «.. ويجلس بايوانها مقدار ثلاثين درجة رملية من كل يوم لإقراء الطلبة الأربعة المقيمين بالزاوية وأرباب وظايفها ومن يأتى إليها من أهل العلم الشريف ما تيسر عليه وعليهم وحل كتب الفقه على مذهب الإمام الشافعى»[1] وغير ذلك من العلوم الشرعية يفهمها الشيخ للطلبة ويفسر لم ما غمض عليهم وأن يلازم الحضور بالزاوية فى كل يوم من الأيام عدا أيام البطالة التى تبطل فيها الدروس بالقاهرة على أن يكون الدرس المذكور لمدة أربعة أيام فى الأسبوع ويقوم الشيخ فى اليومين الباقيين بإلقاء «درس تفسير قرآن وحديث ورقائق وأخبار صالحين وغير ذلك»[2] وهذا يبين لنا أن الدراسة فى هذه الزاوية لم تكن قاصرة فقط على الصوفية الذين رتبوا لتلقى العلم بها بل ترك ذلك أيضا لمن يرغب فى الدراسة من أرباب الوظائف بالزاوية ومن يحضر من خارج الزاوية من أهل العلم أو طلابه.

أما الرباط المنسوب للسيد أحمد البدوى بطنطا فتمدنا حجة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله بمعلومات هامة عن هذا الرباط إذ كان به مجموعة من المجاورين المقيمين، وكان يسمح لمن يريد منهم حفظ القرآن بالالتحاق بالمكتب الذى بالرباط مع الصبيان المنزلين به ويتعلم معهم القرآن ومبادئ القراءة والكتابة على أن يشترك المؤدب والعريف «.. فى تعليم الأطفال المذكورين وفى تعليم من يحتاج إلى التعليم من المجاورين بالرباط المذكور على العادة»[3]. وقد خصص الشيخ شمس الدين أبو عبد الله الدراسة فى هذا الرباط لتدريس الحديث الشريف وخاصة من كتاب صحيح البخارى ورتب له أحد القراء لقراءته فى كل سنة فى المدة من أول شهر رجب إلى آخر شهر رمضان «ويرتب الناظر الشرعى متصدرا من أهل العلم ذا سند عال يرغب فى الرواية عنه، يقرأ القارئ المذكور بين يديه الكتاب المذكور فى المدة المذكورة»[4] ويُصرف للقارئ فى كل سنة تسعون درهما من الفلوس الجدد وللشيخ المتصدر فى كل سنة مائتان وسبعون درهما ورتب معهما من الطلبة المشتغلين بعلم الحديث ستة عشر نفرا «... ويقرر الناظر الشرعى من الطلبة ستة عشر نفرا لسماع الكتاب المشار إليه أعلاه على الشيخ المتصدر المشار إليه أعلاه بقراءة

---

(١) حجة زين الدين صدقه بن محمد ٥٩ محفظة ١٠ أ دار الوثائق.

(٢) حجة زين الدين صدقه بن محمد ٥٩ محفظة ١٠ أ دار الوثائق.

(٣) حجة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله ٧٦١ أوقاف.

(٤) حجة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله ٧٦١ أوقاف.

البخارى..»[1] ولكن الملاحظ هنا طبقا لما جاء بالنص أن فترة الدراسة تكون فقط لمدة ثلاثة الأشهر التى يُتلى فيها كتاب البخارى ولم يحدد الواقف الشيخ شمس الدين ما يقوم به الطلبة فى غير هذه الشهور وإذا كانت الدراسة فقط قاصرة على كتاب صحيح البخارى فيبدو من ذلك أن طلبة العلم كانوا يتغيرون كل سنة بعد فراغهم من سماعه وكان يصرف للطلبة الستة عشر فى كل سنة «... ستمائة درهم وأربعون درهما فلوسا جددا أو ما يقوم مقامها من النقود لكل نفر منهم أربعون درهما»[2].

ومن ذلك يتبين لنا أن المؤسسات الصوفية قامت بدورها فى سبيل نشر العلم وفروع المعرفة ولو أن ذلك لم يكن من صميم الهدف من إنشائها إلا أن النهضة التعليمية التى شهدتها مصر طوال عصرى الأيوبيين والمماليك صيرت هذه المؤسسات لتشارك بنصيبها حتى أصبح التعليم فى أواخر العصر المملوكى ولاسيما ما خصص منه بالمساجد يشترط فى طلبته أن يكونوا من الصوفية.

المكتبات :

بعد استيلاء صلاح الدين على حكم مصر أمر بإخراج كتب الفاطميين فأعدم الكثير منها وأمر ببيع الباقى فاشترى القاضى الفاضل أكثر هذه الكتب ووقفها بعد ذلك على مدرسته، وكان ذلك إيذانا بظهور المكتبات الملحقة بالمدارس بعد أن كانت قاصرة على الجوامع والمساجد، وتغيرت نظرة السلاطين والأمراء من الاهتمام بخزائن القصور إلى الاهتمام «بخزائن كتب المدارس التى ابتنوها من حيث إنها بذلك أمس»[3].

ولم تكن المكتبة بطبيعة الحال إحدى المؤسسات العلمية القائمة بذاتها، ولكنها مؤسسة مساعدة للمؤسسات العلمية للقيام برسالتها العلمية والتعليمية سواء فى المدارس والمساجد أو الخوانق والزوايا كما وجدت أيضا ببعض المكاتب «كتيبات توضع فيها المصاحف...»[4] وبعض الكتب التى يسهل على الأطفال مطالعتها وفهمها. ولاشك أن المكتبة لعبت دوراً هاما فى تنشيط الحياة العلمية التى تميز بها كل من العصرين الأيوبى والمملوكى، ويرجع ذلك أساسا إلى الاتجاه الذى ساد العصرين من انتشار بناء المدارس التى قال عنها ابن بطوطة «... إنه

---

(١) حجة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله ٧٦١ أوقاف.

(٢) حجة الشيخ شمس الدين أبو عبد الله ٧٦١ أوقاف.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ ١ ص ٤٦٧.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية. المجلد الأول ص ١٤٧.

لا يحيط أحد بحصيها لكثرتها»[1] وقد اقترن بمعظم هذه المدارس مكتبات رتبها منشئو المدارس لتكون عونا للمدرسين والطلبة فى البحث والدراسة.

وترجع أهمية المكتبات فى تلك الفترة إلى أن الكتب لم تكن متيسرة كما أنه لم يكن باستطاعة الكثيرين اقتناؤها نظرا لارتفاع أثمانها[2] وقلة الموجود منها لأن جميع الكتب كانت مخطوطات تعتمد فى كتابتها على النسخ اليدوى مع احتمال ارتفاع أثمان مواد الكتابة من رق وجلد وورق وغير ذلك. هذا إلى أن وجود هذه المكتبات قد جنبت الكثير من الطلبة جشع تجار الكتب ومغالاتهم فى الأسعار حتى إن أحد التجار كان إذا احتاج شخص ما كتابا معينا أحضره إليه وأوهمه أنه استأجره من شخص آخر ولا يمكنه منه إلا إذا دفع إيجارة يوميه للكتاب قد تصل إلى ثمنه أو أزيد منه[3]. إلا أنه وجد من التجار من كان يبيع للطلبة الكتب بنفس ثمن شرائها مع أخذه فائدة معينة، فإذا انتهى الطالب من الكتاب رده للتاجر واسترد ما دفعه فى ثمنه[4].

إلا أنه لم يكن فى مقدرة معظم الطلبة دفع قيمة الكتاب أو ثمن عاريته، وهذا ما جعل للمكتبة المدرسية أهمية بالغة فى حياة الدراسين. فبدونها لا يستطيع الطلبة الاطلاع على شىء إلا ما يمليه عليهم أساتذتهم، ولكن وجودها أتاح لهم فرصة البحث والاطلاع ومقابلة ما يدرسون على آراء الفقهاء والعلماء، كما أتاحت لهم حرية القراءة والبحث فى فروع العلوم المختلفة بصرف النظر عما إذا كانت تدرس لهم من عدمه، كما كان بإمكانهم الاطلاع مسبقا على الدروس التى سيقوم المدرسون بشرحها أو إملائها عليهم مما يعين الطلبة على سرعة الفهم والتجاوب مع الأساتذة.

ولم تكن رسالة المكتبات قاصرة على خدمة المدرسين والطلبة ولكنها أفادت الباحثين فى شتى فروع العلوم فبدونها ما كنا لنسمع عن كثير من مؤرخى تلك الفترة وعلمائها الذين اعتمد كثير منهم فى بحثه على ما وجد من مادة علمية وتاريخية فى مكتبات بعض المدارس. وكما أعانتهم المكتبات فى تصنيف مؤلفاتهم فإنها قد احتفظت لنا بالكثير من هذا التراث كما

---

(١) ابن بطوطة تحفة النظار ص ٢٣.

(٢) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٦٢، ١٦٣ – التبر المسبوك ص ٤٠٤، ٤٠٥.

يذكر السخاوى فى ترجمة على بن أحمد بن اسماعيل... القلقشندى أنه حضر بيع كتب وكان من جملتها لسان العرب فى اللغة فرام شرائه وزاد فيه فانتدب له بعض الأعيان حتى بلغ ثمنا كثيرا لا ينهض الشيخ بالوفاء به وخشى من الزيادة فيه أن يلزم فى الحال ثمنه.

(٣) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٩ ص ١٤٨.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٤ ص ٣٠٥، ٣٠٦.

احتفظت بجانب موجودها من الكتب فى مختلف العلوم بالوثائق التاريخية من الرق والورق الخاصة بوقف المدرسة[1]. وقد ساعدت حرية الدراسة بالمكتبات وعدم التقيد بمنهج معين على نبوغ الكثير من طلبة العلم ولذلك فإنه قل أن توجد مدرسة فى العصر المملوكى دون أن يحوى تصميمها المعمارى خزانة للكتب»[2] مع مراعاة أن تكون المكتبة فى مكان متوسط ومناسب بين أواوين المدرسة قريبة من مساكن الطلبة ليسهل الوصول إليها، فى نفس الوقت أن يكون المكان مرتفعا عن أرضية الشارع بعيدا عن دورات المياه والرطوبة[3].

أما نوعية الكتب التى تحويها هذه المكتبات فكانت تخضع بدورها للهدف الذى أنشئت المدرسة من أجله وخدمته، فإذا كانت مدرسة للشافعية كانت الكتب بها خاصة بفقه هذا المذهب وهكذا. أى إنها كانت مكتبات متخصصة حسب المواد التى تدرس فى كل مدرسة طبقا لنصوص لائحتها[4]. ومع ذلك وجدت الكثير من المدارس التى يدرس بها فقه المذاهب الأربعة بالإضافة إلى علوم الحديث والقراءات والنحو وغيرها. أى إن مكتباتها كانت شاملة لمعظم مواد الدراسة المتعارف عليها فى تلك الفترة إن لم يكن كلها. إذ تذكر حجة السلطان برقوق «ويرتب الناظر شخصا من الصوفية المذكورين من أهل الخير والدين خازنا لما يكون بهذه الخانقاة من الربعات والختمات الشريفات وكتب الحديث والعلم وغير ذلك من الكتب..»[5] وما جاء بحجة السلطان الغورى «... وسلمه جميع ما فيها من الكتب من تفسير وحديث وفقه ولغة ومعان وبيان وبديع وأصول فقه وأصول دين وغير ذلك من نحو وصرف وغيرها»[6]. وتزود المكتبة بكتبها اعتمادا على مصادر أربعة هى[7]:

١ — الواقف: وهو الشخص الذى يحبس على المكتبة الكثير من الكتب حسب حالته الاقتصادية إذ يذكر أن القاضى الفاضل قد زود مدرسته بجملة عظيمة من الكتب فى سائر العلوم

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٥٦.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم. المكتبة المملوكية ص ٣٧، ٣٨ انظر سعيد عاشور مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٥ — المجتمع المصرى ص ١٤٥.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم. المكتبة المملوكية ص ٤١، ٤٢.

(٤) عبد اللطيف إبراهيم. المكتبة المملوكية ص ٤٥.

(٥) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.

(٦) عبد اللطيف إبراهيم. المكتبة المملوكية ص ٧٠ — دراسات تاريخية وأثرية انجلد الثانى ص ٤٤ - سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ٤٦.

(٧) عبد اللطيف إبراهيم المكتبة المملوكية ص ٤٩، ٥٠.

تقدر بحوالى مائة ألف مجلدة[1] من الكتب التى اشتراها من مخلفات المكتبة الفاطمية، كما أن الأمير جمال الدين محمود قد زود مدرسته التى أنشأها سنة ٧٩٧ هـ ١٣٩٤م بخزانة كتب. يقول المقريزى عنها: إنه لا يعرف اليوم بديار مصر ولا الشام مثلها.. وبهذه الخزانة كتب الإسلام من كل فن[2]. أما الأمير جمال الدين يوسف الاستادار فقد زود مكتبة خانقاته بمجموعة قيمة من الكتب وكان مما فيها عشرة مصاحف طول كل مصحف منها أربعة أشبار إلى خمسة فى عرض ما يقرب من ذلك إحداها بخط ياقوت، وآخر بخط ابن البواب وباقيها بخطوط منسوبة، ولها جلود فى غاية الحسن معمولة فى أكياس الحرير الأطلس، ومن الكتب النفيسة عشرة أحمال[3].

٢ – الهدايا والهبات: وهو مايهديه إلى المكتبة بعض من أهل الجاه والعلم[4] لينتفع به الطلبة.

٣ - النسخ: سواء كان ذلك بدفع أجرة للنساخين أو بواسطة بعض الطلبة أو الصوفية المنزلين بالمدرسة أو الخانقاة.

٤ – الشراء: من أسواق الوراقة، وتجار الكتب[5] ودفع ثمنها من ريع الوقف.

موظفو المكتبة:

١ – **الخازن:** وهو المشرف على المكتبة والمسئول عن كتبها وتنظيم العمل بها وفقا للشروط التى يعينها له الواقف. فكان يجب على من يشغل هذه الوظيفة أن يكون متمتعا ببعض الصفات والمزايا كأن يكون أمينا متدينا واسع الاطلاع عارفا بشئون الكتب[6] من أهل العلم

---

(١) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٦٥.

(٢) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٣٩٤.

(٣) المقريزى: الخطط جـ ٢ ص ٤٠٠.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ١١٧ - ١١٨ - يذكر فى ترجمة عبيد الله بن عوض أنه كتب على الهداية والمجمع والكشاف وغيرها من كتبه حواشى مفيدة متقنة ووقفها بالصرغتمشية.

(٥) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٩ ص ١٤٨.

يبدو أن عملية الشراء من أسواق الكتب لم تكن مأمونة إذ يذكر السخاوى فى ترجمة محمد بن محمد بن الحريرة أحد تجار الكتب أنه كان يقوم بشراء الكتاب بالثمن اليسير ثم يكتب عليه بخطه أنه بخط فلان فيروج، وربما يقع له الكتاب المخروم فيوالى بين أوراقه أو كراريسه بالكلام يزيده من عنده.. وربما يكون الخرم من آخر الكتاب فيلحق ما يوهم به تمامه.

(٦) سعيد عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص ١٩٥.

والنزاهة، ولعل السبب أن بعض الحجج تشترط أن يكون الخازن من أهل العلم لتكون له دراية بالكتب ومعرفة محتوياتها ومصنفاتها، لأنه يتعامل مع الفئة المتعلمة سواء من الطلبة أو المدرسين والمعيدين ومن يرغب فى الاطلاع من سائر المثقفين والمتعلمين من الفقهاء والعلماء وغيرهم من أهل الفضل والعلم، وإرشاد من يطلب منهم مساعدته فى اختيار الكتب التى تعينه فى بحثه ودراسته. باعتبار أن وظيفته توجيهية تربوية تهدف إلى تعريف الطلبة بتراثهم وتوجيههم إلى مصادر المعرفة وإعانتهم على تحصيلها[1]. مع تقديره لقيمة الكتب العلمية التى يتولى الاشراف عليها ما يجعله حريصا على المحافظة على الكتب وصيانتها. إذ تذكر بعض الحجج «ويصرف لرجل من أهل الأمانة والديانة والنهضة والصيانة يقرره الناظر فى وظيفة خزن الكتب»[2] كما تشترط حجة السلطان فرج بن برقوق أن يكون الخازن «قادرا على القيام بخدمة الكتب عارفا بتركيبها»[3].

ونظرا لما كان لهذه الوظيفة من أهمية فى حياة الطلبة والمشتغلين بالعلم وما يكون تحت مباشرة الخازن من أمهات المخطوطات الثمينة، نجد أن الكثير من العلماء والمشايخ قد تولوا العمل بهذه الوظيفة دون أى حرج، فقد تولى شيخ الإسلام ابن حجر العسقلانى خزن الكتب بالمدرسة المحمودية[4]. والشيخ شرف الدين الميدمى النحوى المحدث خزن الكتب بالمدرسة الكاملية ثم مشيختها[5] بعد ذلك ما يدل على أن وظيفة الخازن كانت من الوظائف المرموقة. كما نجد فى بعض الأحيان أن تعيين الخازن كان يتم بناء على رغبة السلطان ومعرفته الشخصية له، كما تم فى تعيين خازن كتب المدرسة المؤيدية [6]، والمدرسة الأشرفية برسباى[7]،

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٧٥ – سعيد عاشور: المجتمع المصرى ص ١٤٦.

(٢) حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف – أنظر: حجة السلطان المؤيد ٩٣٨ أوقاف – حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٢٩ – حجة السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ١٩٠– عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية المجلد الثانى ص ٤٤ – نصان جديدان من وثيقة الأمير صرغتمش ص ٢٧.

(٣) حجة السلطان فرج بن برقوق ص ٦٦ محفظة ١١ أ دار الوثائق.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٤٣.

(٥) ابن أبيك الصفدى. الوافى بالوفيات جـ ٢ ص ١٠.

(٦) حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف– العينى: عقد الجمان جـ ١٩ سنة ٨٢٢هـ.

عبد اللطيف إبراهيم: الكتبة المملوكية ص ٦٧.

(٧) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٧ ص ١٥٨

وقبة الظاهر خشقدم[1]. وأحيانا كان تعيين الخازن يتم بموافقة طلبة العلم المنتفعين بالمكتبة بشرط رضاهم أجمعين واتفاقهم عليه[2]. ونجد فى بعض المكتبات أن الخازن كان يتولى عمله بالمكتبة بالإضافة إلى ما يقوم به من أعمال أخرى كالخطابة أو الإمامة أو الفراشة[3]. ويبدو أنه كان من الممكن أن يشترك أكثر من واحد فى تولى وظيفة الخازن بالمكتبة الواحدة على أن يقسم الراتب عليهم. إذ يذكر السخاوى فى ترجمته لابن عمر الصوفى أنه كان بيده الكثير من الوظائف منها نصف خزن الكتب بالباسطية[4].

ويقوم الخازن بالمحافظة على الكتب وصونها من التلف أو البلل وتنفيض الكتب مما يعلق بها من الغبار، وتنظيف الخزائن وأماكن حفظ الكتب من الأتربة وغيرها مما قد يعود عليها بالتلف وتنظيمها داخل الخزائن وتفقدها من حين لآخر وإصلاح ما أصابه التلف منها «وترميم شعثها وحبكها عند احتياجها للحبك»[5]مع القيام بحراستها وصونها من الضياع أو السرقة. يؤيد ذلك ما جاء ببعض حجج الوقف «..ويحفظها من البلل ويتعاهدها بالتقليب والإصلاح..»[6] ثم تضيف بعض الحجج بعض المهام الأخرى للخازن «على أن يتولى احراز الكتب بالخزانة المذكورة ونفضها من الغبار وتعهدها على العادة وصونها عما يفسدها»[7] ثم تكتمل مهام الخازن بأن يكون حارسا لما يكون بالخزانة من الكتب ما جاء بحجة جوهر اللالا «.. على أن يتولى خزن الكتب التى بالمدرسة المذكورة ونفضها وحراستها وعمل مصالحها على العادة..»[8]. وبالإضافة إلى هذه الأعباء يقوم الخازن بالإشراف على ضمان تأدية المكتبة للهدف الذى أنشئت من أجله لمساعدة الباحثين والقارئين وتيسير احضار الكتب لمن يرغب فيها بدون

---

(١) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٨ ص ٢٩٢.

(٢) عبد اللطيف إبراهيم: مكتبة فى وثيقة ص ١٦- الكتبة الملوكية ص ٦٧.

(٣) انظر: حجة وقف السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف- حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق - عبد اللطيف إبراهيم: دراسات تاريخية وأثرية المجلد الثانى ص ٤٤- السخاوى. الضوء اللامع جـ ٨ ص ٩٥، ٩٦ ص ٣٠٠، ٣٠١ جـ ١١ ص ١٥٢، ١٥٣.

(٤) السخاوى: الضوء اللامع جـ ٨ ص ٢٧٠.

(٥) السبكى: معيد النعم ص ١١١.

(٦) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٧) حجة السيفى أزبك ١٩٨ محفظة ٣١ ب دار الوثائق- انظر: حجة السلطان فرج بن برقوق ٦٦ محفظة ١١ أ دار الوثائق- حجة السلطان قايتباى ٨٨٦ أوقاف ص ١٢٩، ١٣٠- حجة السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ١٩٠ - حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف

(٨) حجة جوهر اللالا ٦٨ محفظة ١٤ دار الوثائق.

تأخير مع امداد المطالعين بما يحتاجون إليه من «المداد والأوراق والأقلام».[1] على أن نظام العمل داخل معظم المكتبات كان قائما على أساس توفير الكتب للإعارة الداخلية فقط وعدم السماح بإخراج الكتب من المدرسة أو المسجد أو الخانقاة سواء كان ذلك برهن أو بغيره وربما كان الهدف من ذلك توفير الكتب لمن يريد الاطلاع حتى لا يستأثر شخص واحد بالكتاب وحرمان باقى القراء من الانتفاع به. وقد تعددت التوصيات بحجج الوقف بعدم التصريح بخروج الكتب. من ذلك ما جاء بحجة قانى باى الرماح «.. وكل من حضر إليه من طلبة العلم الشريف يمكنه من الانتفاع بما يحتاج إليه من الكتب المذكورة فى نسخ أو مقابلة أو مطالعة إلى أن ينهى حاجته ثم يرد الكتاب إلى محله»[2] وما جاء بحجة المؤيد شيخ «.. وأنه لا يخرج من الجامع المذكور كتابا واحدا ولا أكثر منه مطلقا»[3] وبحجة السيفى أزبك عند تحديد مهمة خازن الكتب «.. ومناولتها لمن يريد المطالعة فيها والكتابة منها بحيث يكون ذلك بالجامع المذكور..»[4].

وفى بعض المكتبات كان يسمح للطلبة استعارة الكتب لمدة شهر بحيث لا يسمح بخروج الكتاب إلى خارج المدرسة أو الخانقاة، وألا تعار الكتب إلا للطلبة الأمناء الثقات من أهل المكان. وإن خشى الخازن عدم محافظة المستعير على الكتاب أو كان غير معروف له طلب منه ضمانة أحد الطلبة الموثوق بهم عند الخازن. أما إذا كان المستعير من غير أهل المكان فلا يمكنه الخازن إلا من القراءة الداخلية فقط، وإذا أراد الانصراف سلم الكتاب لخادم المكتبة لحين عودته. اذ تذكر إحدى الحجج «.. ومن حضر من طلبة العلم الشريف من أهل الخانقاة المذكورة لاستعارة شيء من الكتب المذكورة يشتغل فيه سلمه إليه إن كان ثقة وإن كان ممن يخشى منه منعه إلا أن يضمنه ثقة من أهل الخانقاة.. وإن كان المستعير من غير أهل الخانقاة المذكورة سلم إليه ما يريد استعارته فيطالع فيه نهارا بالخانقاة المذكورة ثم يبقيها عند الخادم ثم يستعيدها منه نهارا»[5] وتشترط إحدى الحجج أن يوقع المستعير بتسلمه للكتاب وعند رده للمكتبة يعطيه الخازن توقيعه، ولا يسمح الخازن بتأخر الكتب عند المستعير حتى لا يتسبب ذلك فى نسيانها «.. وعلى أنه من حضر إليه يطلب شيئا من ذلك فإن كان أهلا لمطالعة ذلك والاشتغال به وكان

---

(١) سعيد عاشور: مصر فى عصر الدولة المماليك البحرية ص ١٩٥.

(٢) حجة قانى باى الرماح ١٠١٩ أوقاف.

(٣) حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف- أنظر حجة جمال الدين الاستادار ١٠٥ محفظة ١٦ أ دار الوثائق.

(٤) حجة السيفى أزبك ١٩٨ محفظة ٣١ ب دار الوثائق.

(٥) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق. أنظر: عبد اللطيف إبراهيم المكتبة الملوكية ص ٦٢ – محمد أمين. تاريخ الأوقاف ص ٣٣٠، ٣٣١.

من أهل المكان وممن يوثق به دفعه إليه وأخذ خطه منه فإذا أعاده إليه دفع إليه خطه ولا يمكنه من التأخير مدة يخشى منها حصول النسيان»[1].

ويجب على الخازن أن يمتنع عن إعطاء الكتب لمن ليس بأهل لها، وبذلها للمحتاج إليها، وأن يقدم فى العارية الفقراء الذين يصعب عليهم تحصيل الكتب على الأغنياء[2]. أما الاستعارة الخارجية، فقد كان يسمح بها فى بعض المدارس[3]. ويبدو أن بعض الواقفين كان يشترط أن يترك المستعير رهنا يساوى قيمة الكتاب لضمان محافظته على الكتاب ورده فى الميعاد الذى يحدده الخازن. يذكر السبكى أنه «كثيرا ما يشترط الواقف ألا يخرج الكتاب إلا برهن يحرز قيمته وهو شرط صحيح معتبر فليس للخازن أن يعير إلا برهن»[4]. إلا إنه هناك كما سبق القول كثير من مكتبات المدارس قد منعت الإعارة الخارجية منعا باتا لا برهن ولا بغيره وخاصة «المكتبات فى مدارس المماليك الجراكسه»[5] ولعل ذلك يرجع إلى وجود بعض الأشخاص الذين اهتموا باقتناء الكتب وتحصيلها ولو بالغصب إذ يذكر السخاوى أن القاضى علم الدين توسل به عند ابن الشحنة لرد الكتب التى استعارها منه كذلك توسل به خازن كتب المحمودية[6] لنفس الغرض، ووجد البعض الآخر ممن عرف عنهم سوء عاريتهم[7] للكتب بحيث لا يسترد المعير كتبه إلا بشق الأنفس إن أمكن استردادها، وما حدث لمكتبة المدرسة الفاضلية وتفرق كتبها عندما وقع الغلاء بمصر سنة ٦٩٤هـ - ١٢٩٤م فكان الطلبة يبيعون الكتب للحصول على الخبز حتى ذهب معظم ما كان فيها من الكتب «ثم تداولت أيدى الفقهاء عليها بالعارية فتفرقت»[8].

على أن عدم السماح بالإعارة الخارجية للكتب فى معظم المدارس ذات المكتبات العظيمة مثل المدرسة المحمودية مع احتياج العلماء إليها بسبب ندرة بعض كتبها دفع السيوطى إلى تأليف رسالته (بذل المجهود فى خزانة محمود)، محاولا أن يؤول شروط الواقف ويستنبط منها ما

---

(١) حجة السلطان فرج بن برقوق ٦٦ محفظة ١١ أ دار الوثائق. أنظر: سعيد عاشور. المجتمع المصرى ص ١٤٦ - محمد أمين تاريخ الأوقاف ص ٢٣١.

(٢) السبكى. معيد النعم ص ١١١.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم المكتبة المملوكية ص ٦٣.

(٤) السبكى. معيد النعم ص ١١١.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة المملوكية ص ٦٣.

(٦) السخاوى. الضوء اللامع جـ ٩ ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٧) السخاوى. الضوء اللامع جـ ٩ ص ٢٤٨- ٢٥٠.

(٨) المقريزى. الخطط جـ ٢ ص ٣٦٥.

يسمح باستثناء البعض من الشروط التى عينها الواقف، والافتاء بجواز الإعارة لمن هم جديرون بحفظ الكتب وصونها. وقام السيوطى بمحاولته معتمدا على أنه رأى شيخى الإسلام لبلقينى والمناوى يستعيران منها ويخرجان منها الكتب إلى منزلهما «وهما الإمامان يقتدى بهما» وقد فند السيوطى رأيه فى إباحة إعارة الكتب إعارة خارجية مع علمه بمخالفة ذلك لشروط الواقف. بأن له أربعة أوجه وجهان ضعيفان ووجه حسن ووجه قوى صحيح، يقول فى الوجه الثالث أن بعض الأئمة أجاز مخالفة شرط الواقف إذا اقتضت المصلحة ذلك. وفى الوجه الرابع يرى أن مقصود الواقف تمام النفع وتمام الحفظ – أى تمام انتفاع الناس بما وقفه من كتب بالمكتبة المذكورة والمحافظة عليها من الضياع والتلف – فإذا وجد من يحتاج إلى الانتفاع بها فى تصنيف وتأليف فإنه لا يتمكن من تمام الانتفاع بها داخل المدرسة، فإذا كان المنتفع ممن يوثق بحفظه وصونه للكتب «جاز الاخراج له ويستثنى من المنع» ثم يخرج السيوطى من محاولته هذه بتوصيتين الأولى: أنه لا ينبغى أن يستعار من هذه الخزانة إلا ما لا يتيسر وجوده فى غيرها، والثانية: أنه لا يمكث الكتاب عند المستعير إلا بقدر ما يقضى حاجته منه «ومدرك الأمرين أن ما جاز للضرورة يتقدر بقدرها»[1].

ومع ذلك فقد كان البعض يتحايل على بعض الخزنة فى سبيل الاستعارة الخارجية للكتب باذلين فى سبيل ذلك المال الجزيل، كما كان الحال مع خازن كتب المحمودية إذ كان أكابر الدولة وأركان المملكة يحاولونه على استعارة الكتب ولكنه مع ذلك «كان يباشر عمله بقوة وصرامة ولا يلتفت إلى طلباتهم»[2].

ويصرف للخازن نظير تأديته للأعمال السابقة راتب شهرى يتكون غالبا من مبلغ نقدى مضافا إلى ما يصرف إليه من بعض الأشياء العينية كالخبز والحلوى والكسوة وغيره فمثلا كان يصرف لخازن الأشرفية برسباى «... فى كل شهر من الشهور من الفلوس المذكورة ثلاثمائة درهم وفى كل يوم من الخبز القرصة المذكور ثلاثة أرطال»[3] أما فى مدرسة السلطان برقوق فكان الخازن من جملة الصوفية المنزلين فى المدرسة وكان يصرف له مبلغ من المال زيادة عما هو مقرر له عن وظيفة التصوف «.. ويرتب الناظر شخصا من الصوفية المذكورين من أهل الخير والدين خازنا لما يكون بهذه المدرسة من الربعات والختمات الشريفات وكتب الحديث والعلم وغير ذلك من الكتب وما لعله يكون حاصلا بها من الحصر والبسط والقناديل وغير ذلك على العادة فى

---

(١) السيوطى. بذل المجهود ص ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦.

(٢) السخاوى. الضوء اللامع جـ ٦ ص ٢٥٢.

(٣) حجة وقف السلطان برسباى ٨٨٠ أوقاف ص ١٩١.

مثله ويصرف له فى كل شهر خمسة عشر درهما نقره مضافا لما هو مرتب له عن وظيفة التصوف على ما شرح أعلاه»[1].

وقد اختلفت المرتبات من مكتبة لأخرى وذلك تبعا لمقدار ريع الوقف السنوى وما يقوم به الخازن من أعباء[2] ومقدار القيمة الفعلية للعملة.

وإذا بدا من الخازن تقصير أو إهمال أو تفريط فى الكتب الموجودة تحت إشرافه أعفى من وظيفته. إذ تذكر حجة الأمير صرغتمش «.. وإن بدا من الخازن المذكور تقصير أو خيانة فى الكتب استبدل الناظر غيره»[3] كما كان يتعرض للعقاب بالضرب والتعزير إذا ثبت عليه التفريط فى الكتب وإلزامه بدفع قيمة الكتب الناقصة[4].

والخازن مثله كباقى أرباب الوظائف الملحقين بالمدرسة أو الخانقاة يتمتع بنفس حقوقهم وامتيازاتهم على أن يقوم بواجباته المنصوص عليها بحجة الوقف.

٢ – **المناول** : غالبا ما يكون المناول مساعدا للخازن، ويقوم بإرشاد القراء إلى مواضع الكتب وإحضارها لمن يرغب منهم فى القراءة أو النسخ وغير ذلك ثم يقوم بإعادتها إلى أماكنها بعد فراغهم منها. ويقوم المناول بهذا العمل تحت إشراف الخازن، ولكن معرفته بالكتب لم تكن تتعدى معرفته أسماء الكتب وأماكن حفظها فقط، ولم يتجاوز ذلك لمعرفة محتويات الكتب العلمية. أى إنها وظيفة وسط لا تسمو إلى وظيفة الخازن ولكنها لا تهبط إلى مستوى الفراشين[5]. ولكن عمله بهذه الصورة يجعله قريبا إلى عمل الخدم. ولذلك كان يعبر عنه أحيانا بحامل المصحف أو خادم الربعة الشريفة تأدبا وتمييزا لمن يقوم بالعمل بين الكتب والقراء وبين من يقوم بأعمال النظافة[6]. ومع ذلك فإن من واجبات الخازن كما تبين قبل ذلك أن يقوم بالعناية

---

(١) حجة وقف السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق: وكان يصرف للخازن عن وظيفة التصوف فى كل شهر عشرون درهما نقرة ومن الحلوى رطل واحد ومن الزيت الطيب رطلان ومن الصابون رطلان بالمصرى وبرسم كسوته فى السنة ثلاثون درهم ومن الخبز فى اليوم ثلاثة أرطال بالمصرى.

(٢) انظر: عبد اللطيف إبراهيم – المكتبة المملوكية ص ٨١ – ٨٣. وتشمل بيان بالمرتبات الشهرية للأمناء فى بعض المدارس المملوكية.

(٣) عبد اللطيف إبراهيم. وثيقة الأمير صرغتمش ص ٣٢.

(٤) السخاوى. الضوء اللامع جـ ٥ ص ١٤٣، ١٤٤ – جـ ٦ ص ٢٥٢ – عبد اللطيف إبراهيم. المكتبة المملوكية ص ٢٥، ٢٦.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم. المكتبة المملوكية ص ٧٨ – أحمد شلبى. تاريخ التربية الإسلامية ص ١٤٣.

(٦) عبد اللطيف إبراهيم. المكتبة المملوكية ص ٧٨، ٧٩ – أحمد شلبى. تاريخ التربية الإسلامية ص ١٤٣، ١٤٤.

بالكتب وتنظيفها من الغبار وما تتأذى به بل تعدى الأمر ذلك بأن يقوم الخازن كما هو واضح فى حجة السيفى أزبك بمناولة الكتب لمن يريد قراءتها «.. ومناولتها لمن يريد المطالعة فيها والكتابة منها»[1] مع العلم بأن نفس هذه الوثيقة تعين خادما للمصحف والربعة الشريفة وحددت اختصاصه «.. على أن يتولى إحضار المصحف والربعة الشريفة كل يوم من حرزهما إلى محل حضور التصوف بعد العصر... وعوده عند الفراغ واحراز ذلك فى حرزه»[2] وهذا يبين لنا أن مناولة الكتب للقراء كانت من صميم عمل الخازن، ولكن حجة وقف جمال الدين الاستادار ربما تلقى بعض الضوء، اذ تذكر لنا وجود الخادم الذى له علاقة بالاهتمام بالكتب والمحافظة عليها من الضياع وقيامه ببعض مهام الخازن «. . . وإن كان المستعير من غير أهل الخانقاة المذكورة سلم إليه ما يريد استعارته فيطالع فيه نهارا بالخانقاة المذكورة فيه ثم يبقيها عند الخادم ثم يستعيدها منه نهارا»[3] وربما كان هذا الخادم المذكور هو ما تعارف عليه بأن يقوم بوظيفة المناولة داخل المكتبة. على أية حال إذا وجدت هذه الوظيفة بالمكتبة بالإضافة إلى وجود الخازن فمعنى هذا أن ترتقى وظيفة الخازن إلى الناحية الإشرافية فقط على عملية العناية بالكتب ونظافتها ونظافة الخزانة نفسها، مع قيامه بتسجيل الاستعارات ومباشرة نظام سير العمل، وحسن أدائه، ولكن توصيف مهمة الخازن بحجج الوقف تدفعنا إلى القول بأنه غالبا ما كان يقوم الخازن بهذه الأعمال دون مساعدة من أحد. ومع التسليم بوجود طبقة المناولين الذين تتحدث عنهم الحجج بخدام الربعات الشريفات، إذ تذكر حجة السلطان برقوق «ويرتب الناظر أربعة أنفس من الصوفية المذكورين أعلاه يتولون احضار الربعات الشريفات التى بهذه المدرسة المذكورة يفرقون أجزاءها على الجماعات القايمين بوظيفة التصوف بعد صلاة العصر وعند فراغهم يجمعون الأجزاء المذكورة فيه ويعيدونها إلى أماكنها على العادة فى مثل ذلك. . .»[4].

على أية حال لا يوجد على الأقل بحجج مصادر هذا البحث ما يفيد بوجود وظيفة المناول بالخصائص المذكورة بأن يكون حلقة اتصال بين رواد المكتبة من القراء والنساخ والباحثين، وبين

---

(١) حجة السيفى أزبك ١٩٨ محفظة ٣١ ب دار الوثائق.

(٢) حجة السيفى أزبك ١٩٨ محفظة ٢١ ب دار الوثائق.

(٣) حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق.

(٤) حجة السلطان برقوق ٥١ محفظة ٩ دار الوثائق.

انظر حجة جمال الدين الاستادار ١٠٦ محفظة ١٧ أ دار الوثائق. - حجة جوهر اللالا ٨٦ محفظة ١٤ دار الوثائق. حجة السيفى ازبك ١٩٨ محفظة ٣١ دار الوثائق. - حجة السلطان المؤيد شيخ ٩٣٨ أوقاف.

الكتب المحفوظة بالخزائن. مع العلم بأن حجج الوقف لم تترك شيئا من الوظائف إلا ووصفته وحددت مهام كل وظيفة والعمل المطلوب من شاغلها أداؤه وما يصرف له نظير قيامه بها.

ومن ذلك يتضح أن خدام الربعات الشريفات كمناولين قد رتبوا لخدمة دروس التصوف فقط، ولم يكن ذلك بالمكتبات.

٣ - **النساخ والمجلدون والمذهبون** : وهم الفئة التى قامت بنسخ التراث العلمى والأدبى وصيانته فقام النساخ بعمل آلة الطباعة فى العصر الحاضر وأمدوا المكتبات باحتياجاتها من المخطوطات، وربما وجد فى كثير من المكتبات الملوكية الملحقة بالمدارس «بعض النساخ»[١] لنسخ ما يطلب منهم بأجر يدفع لهم من ريع الوقف، كما كان يقوم بعض الطلبة والصوفية[٢] بنسخ الكثير من الكتب.

ويرى السبكى فى معيد النعم، أنه يجب على الناسخ مراعاة الدقة والتأنى أثناء الكتابة والتزامه الأمانة فلا يحذف شيئا أو يختصر رغبة فى سرعة الإنجاز[٣]. وبعد فراغ الناسخ من عمله يدفع بالمخطوط إلى المجلد لتجميع أوراقه وتجليده، وقد بلغ فن التجليد فى مصر فى العصر الملوكى أرقى مراتب التقدم والازدهار وخصوصا فى القرنين الثامن والتاسع الهجرى. أما تذهيب الكتب فقد اتفق الفقهاء أنه لا يجوز إلا لتحلية المصحف[٤]. وأصبح لمدينة القاهرة فى تلك الفترة الصدارة فى إنتاج الكتب والمصاحف وتجليدها وزخرفتها باستخدام الأساليب الهندسية والنباتية فى الزخرفة[٥] ووجد الكثيرون ممن برعوا وتميزوا بصناعة التجليد والتذهيب وما يتعلق بها من الزنجفر واللازورد[٦]. على أن الذى كفل لهذه النهضة الفنية الاستمرار والتقدم هى الثروة الطائلة التى كان يتمتع بها سلاطين مصر وأمراؤها بالإضافة إلى بعض العلماء والتجار مما جعلهم يدفعون الكثير فى سبيل الحصول على الكتب النادرة وخصوصا التى بخط مؤلفيها، والمصاحف الثمينة والعناية بتجليدها للحفاظ عليها وصيانتها من التلف. والصرف على زخرفتها وتزيينها. وقد بلغ من شغف بعض الناس وولعهم باقتناء الكتب إلى جمع الكتاب الواحد أكثر من مرة. إذ يذكر أن القاضى ابن جماعة قد «خلف من الكتب النفسية ما يعز اجتماع مثله لأنه

---

(١) عبد اللطيف إبراهيم: المكتبة الملوكية ص ٧٦، ٧٧. أحمد شلبى. تاريخ التربية الإسلامية ص ١٣٦، ١٣٧.

(٢) السخاوى. الضوء اللامع جـ ٧ ص ١٥٦.

(٣) السبكى. معيد النعم ص ١٣١، ١٣٢.

(٤) السبكى. معيد النعم ص ١٣٣.

(٥) عبد اللطيف إبراهيم. التجليد فى مصر الإسلامية ص ١٥ - ١٧.

(٦) السخاوى. الضوء اللامع جـ ٦ ص ١١٥ - جـ ٧ ص ٢٢. جـ ٨ ص ٢٥٤ - جـ ٩ ص ١٧٩.

كان مغرما بها فكان يشترى النسخة من الكتاب التى إليها المنتهى فى الحسن ثم يقع له ذلك الكتاب بخط مصنفه فيشتريه ولا يترك الأولى إلى أن اقتنى بخطوط المصنفين ما لا يعبر عنه كثره..»[1] وقس على ذلك الكثيرين ممن كانت لهم الرغبة والقدرة على اقتناء الكتب. ومما لا شك فيه أن ازدهار الحياة الاقتصادية فى مصر فى تلك الفترة كان له أثره الكبير على الحياة الفنية. فإن ما يشجع الفنان على الاتقان والخلق والإبداع هو ما سيلاقيه من حسن الجزاء والتقدير.

(١) ابن حجر أنباء الغمر جـ ١ ص ٣٥٥.

انظر: السخاوى. الضوء اللامع جـ ٩ ص ٢٩٥، ٢٩٦. النويرى. نهاية الأرب جـ ٣٠ ق ١ سنة ٧٠٤هـ. ابن إياس. صفحات لم تنشر ص ٦٧، ٦٨. عبد اللطيف إبراهيم. مكتبة فى وثيقة ص ٣٨، ٤٠.

obeikandl.com